د. أحمد

خالد توفيق

لا مكان للملل



د.أحمد خالد توفيق

لا مكان للملل



دار كيان للنشر والتوزيع

لا تتحمس جدًا

فكرة لم استطع بعد أن أرسمها بدقة، ولا شك أن خبراء التربية وعلم النفس التربوي المحدثين قد درسوها بعناية وقسموها درجات، لكنني بالطبع لا أملك سوى انطباعاتي العامة الفطرية، وقد شخت على الغوص في مراجع علم النفس لأجد المصطلحات الدقيقة التي تعبر عما أريد قوله.

كتبت مرارًا عن أن الذكاء أنواع؛ وأن هناك نوعًا خاصًا منه يتعلق بالقدرة على الخلق الإبداعي.. الذي يقدر على رسم لوحة أو كتابة قصة أو تأليف سيمفونية. ثمة نوع يتعلق بسرعة تعلم اللغات (أعتقد أنني أملك قدرًا معقولاً منه)، ونوع يتعلق بالقدرات الرياضية العقلية الخارقة (لا أملك ذرة منه).. لي صديق يمكنه ضرب أربعة أرقام في أربعة أخرى دون قلم أو ورقة.. هناك ذكاء سرعة الحفظ.هناك نوع غريب من الذكاء أقرب إلى غرائز الحيوانات البرية، وأطلق عليه اسم (نصاحة)، وهو نوع الذكاء الذي يجعل رجلاً معدمًا يفتقر للتعليم يملك عدة عمارات وقصور، وهو نوع الذكاء الذي يجعل بائعة المقدونس تتلاعب بك كطفل. عرفت أساتذة جامعة بارعين يُخدعون في أي مشروع يدخلون فيه، ويتلاعب بهم أمثال هذا الرجل المعدم. لربما أمكن أن نطلق لفظة (لماحية) بدلاً من لفظة (نصاحة) لكني لست واثقًا من انهما الشيء ذاته. يبدو ان القدرة على تذكر الوجوه تندرج تحت هذا النوع من الذكاء، ولا شك أنه ضروري لدى أي سمسار ناجح.

هناك القدرة على إيجاد حلول ابتكارية بسرعة. رأيت طبيبًا يحاول أن يحشر فوهة معدنية في خرطوم مطاطي بلا جدوى، هنا قام عامل بسيط بملء كوب من الماء الساخن وضع فيه طرف الخرطوم حتى لان، ثم أدخل فيه الفوهة المعدنية بسهولة.

على العكس من ذلك، سعة الإطلاع ليست ذكاء على الإطلاق. هي موهبة تصلح لحل الكلمات المتقاطعة والفوز في برامج جورج قرداحي، لكن من يعرف طول نهر الأمازون ليس ذكيًا بالتأكيد.

تذكرت هذا الموضوع منذ أعوام، عندما كنت أقف لدى أحد القصابين ابتاع لحمًا. كان سعر كيلوجرام اللحم وقتها أربعين جنيهًا مما يدلك على أنها ذكرى قريبة جدًا!.. وكان القصاب يتسلى بممارسة (النصاحة) معي، وهو يسخر في سره من أستاذ الجامعة الذي يمكنه أن يقنعه بأي شيء أو يدس له أردأ قطع اللحم، مقنعًا إياه إنها (قطعيات) نادرة لها ثمن خاص.

هنا رأيت امرأة مسنة في الستين من العمر تقريبًا تخطو مترنحة في الشارع أمام محل القصاب، ثم سقطت أرضًا فاقدة الوعي. تعاوننا على نقلها إلى الداخل الظليل وقدم لها صبي القصاب كوب ماء. كانت امرأة بسيطة ريفية لا تكف عن البكاء الهستيري ولطم الخدين. وفي يدها لمحت رزمة ممزقة يطل منها بعض الورق الأبيض بحجم ورقة البنكنوت.

لما تمكنت من الكلام أخيرًا، قالت إنها من السنطة،

وهي مركز صغير من مراكز الغربية يقع على بعد ثلث ساعة من قلب طنطا. قالت إنها كانت في موقف السيارات تبغي الركوب لطنطا، عندما توقفت سيارة أمامها بها رجلان. أكبر الرجلين ناداها باسمها وقال إنه صديق ابنها وعرض عليها توصيلها لطنطا. وافقت في حماسة على سبيل (الاستخسار).

في الطريق إلى طنطا دار حوار سريع. أبدى الرجل الأول إعجابه بالحلي التي تلبسها.. القرط والقلادة والسوار، وعرض عليها ان يشتري منها هذا الذهب بخمسين ألف جنيه (وهو مبلغ ممتاز بأسعار الذهب وقتها) فوافقت على الفور، وتم التبادل. أخذ منها الذهب وناولها لفافة مليئة بالبنكنوت وعدّ لها الرزم.. ثلاث.. أربع.. خمس رزم.. مبروك..

ثم أنها ترجلت من السيارة في طنطا سعيدة بالصفقة الذكية التي أبرمتها، وفتحت اللفافة – بمجرد ابتعاد السيارة- لترى المال فاكتشفت أنها اوراق بيضاء غلفت بالعملة على الجانبين على طريقة السينما.. صرخت وغابت عن الوعي..

كان الجزار يستمع لها في غير تعاطف وهو يمضغ لفافة التبغ، أما أنا فكنت في ذهول من كل هذا القدر من الجشع والحمق والغباء. الصفقات لا تتم بهذه السرعة والسهولة.. لا أحد يركب مع غرباء، فإذا ركب فهو لا يبيع الذهب، فإذا باع فهو لا يأخذ رزم مال مغلقة لا يعرف ما فيها. بقرة آدمية هي.

قال لها الجزار في فتور إن عليها ان تذهب لقسم الشرطة لتبلغ عن النصب الذي تعرضت له، فعرضتُ في حماسة وأريحية أن آخذها هناك بسيارتي.

مال علي وهمس من تحت شاربه الغليظ :

ـ «لا تتورط يا دكتور.. سوف تتهمك بأنك من سرق ذهبها بمجرد أن تنزل أمام قسم الشرطة!»

قلت له في عدم فهم:

ـ «كيف؟,.. إنها ضحية!»

ـ «اسمع الكلام!»

ثم مد يده طالبًا ثلاثة جنيهات مني.. كان هذا هو أجر سيارة الأجرة وقتها، ثم لوح بالسكين لسيارة أجرة مارة ففتح الباب وألقى بالعجوز إلقاء داخل السيارة، ودفع للسائق ثلاثة الجنيهات، وأمره أن يأخذها إلى قسم ثان طنطا و»خلي بالك منها يا هندزة.. دي زي والدتك».

ابتعدت سيارة الأجرة هنا أطلت العجوز من النافذة وصاحت بصوت رفيع وهي تشير نحوي:

ـ «هو ده اللي..........»

لكن السيارة كانت قد ابتعدت..

قال الجزار وهو يزن اللحم الرديء لي لأنصرف:

ـ «لا يمكن تصديق قصتها.. لا يوجد أحد بهذه البلاهة. يبدو أنها قامت باختلاق الأمر كله.. هناك احتمال كبير جدًا أنها كاذبة، وتريد توريط أفندي مثلك في مشكلة ليدفع لها.. الاحتمال الثاني أن قصتها حقيقية وأنها

فعلاً بهذا الغباء والطمع.. من الوارد جدًا أن تتمسك بك وتصرخ أمام قسم الشرطة لتورطك في فضيحة ودفع مبلغ يعوض خسارتها.. صدقني يا دكتور.. نحن قمنا بالشيء الصحيح»

تذكرت وجهها الغبي الجشع وهي تنظر من النافذة كدابّة.. هو ده اللي.....؟ ماذا كانت تنوي قوله؟. كتلة ضيق الأفق التي لا يمكن التنبؤ برد فعلها. تذكرت رواية يوميات نائب في الأرياف عندما وقف وكيل النيابة الشاب مع توفيق الحكيم يراقبان عرضًا قانونيًا أمام فلاحة مسنة..أوقفوا أمامها صفًا من الرجال لتختار من قتل زوجها منهم. تجاوزت الصف كله ثم هوت بقبضتها على صدر وكيل النيابة الشاب صارخة: «غريمي!». قال توفيق الحكيم إنه منذ ذلك الحين فقد الثقة في قيمة العروض القانونية مع كل هذا الغباء، ومع التراكوما والرمد البثري اللذين قضيا على بصر هؤلاء القوم.

شكرت القصاب وأنا أحمل قطعة اللحم الرديئة، وقلت لنفسي إنه رجل أريب حذر يملك قدرًا هائلاً من النصاحة. تخلص من العجوز ولم يدفع حتى ثمن سيارة الأجرة بل تقاضاه مني، ثم تخلص من ألعن قطعة لحم لديه.

قالت منال زوجتي عندما فتحت كيس اللحم:

ـ «كيف ينجح القصاب في خداع رجل مثقف مثلك في كل مرة؟»

قلت وأنا أغسل وجهي:

ـ «الثقافة شيء والذكاء شيء والنصاحة شيء آخر.. ما أعرفه هو أنه أنقذني من مشاكل محتملة لا حصر لها، لهذا أنحني له احترامًا وتوقيرًا. لقد استحق ان يخدعني».

لا مكان للملل

قد تشكو من أشياء عديدة في مصر؛ منها الغلاء أو القلق أو التخبط أو الكبت أو الجوع أو الفساد.. إلخ.. لكنك بالتأكيد لن تشكو أبدًا من الملل، فمصر بلد متجدد لا يكف عن مفاجأتك في كل لحظة.

قرأت في الصحف أخبارًا مطمئنة عن أن طفل المعادي كريم لم يمت نتيجة جريمة قتل، ولكن نتيجة فوبيا الكلاب. هذا بلد الأمن والأمان كما ترى.

في مصر يمكن لابنك المراهق – لا سمح الله – أن ينزل بعد الإفطار في الثامنة مساء ليقابل بعض أصدقائه، وفي منطقة شارع اللاسلكي بالمعادي، ثم يتأخر عن العودة للبيت، وتقضي أنت والأسرة ليلة سوداء في محاولة البحث عنه، وتجرب أرقام كل أصدقائه لعله عند أحدهم.

ثم في اليوم التالي تتقدم للشرطة ببلاغ عن اختفائه، تقول شركة المحمول إن آخر مكالمة أجراها من هاتفه كانت في التاسعة والنصف مساء. يتضح أن السبب هو حشد من الكلاب المسعورة طارده في الشارع الخالي فجرى... جرى لأين؟..إلى حيث يسقط في حفرة ويموت. هذا هو ما كشفت عنه كاميرات المراقبة لأحد البنوك في مكان الحادث. تجد الأجهزة الأمنية جثته في بدروم عقار تحت الإنشاء خُصص ليكون (مولاً) تجاريًا وتوقف العمل فيه منذ أعوام.

من الغريب أن هذا حدث في السادس من رمضان،

وهو تاريخ متكرر في مقال اليوم.

قال حارس العقار إن الكلاب الضالة صارت وباء مخيفًا يهدد المنطقة، وكان كريم – اسم الطفل – مصابًا بفوبيا خاصة من الكلاب.

هكذا تجد أن الوضع مطمئن.. هناك كلاب ضالة وحفر يسقط فيها الغافلون ويموتون، وبرغم هذا لا توجد شبهة جنائية.. حتى لو داس الطفل على لغم أرضي أو التهمته سحالي الإجوانا، فالأمن مستتب.

لا أعرف سبب اضطهاد أطفال المعادي، لكني تذكرت قصة الطفل أحمد محمد حسين ذي الأحد عشر عامًا، الذي تعرض هو ووالده لإطلاق الرصاص من قبل ملثمين بالطريق الدائري في البساتين. السبب هو الرغبة في سرقة السيارة في حين لم يتوقف الأب لدى التهديد، والنتيجة هي مصرع الطفل. الحقيقة أن الشرطة أدت عملها جيدًا في هذه العملية ولاحقت الجناة، ودارت معارك بالسلاح أدت لقتل أحد هؤلاء الأوغاد. أحب اللحظات التي تكون فيها الشرطة شرطة وليست جهازًا لحماية النظام.

هل تشعر بالملل؟

إذن تعال لتمضي أمسية هادئة مع أسرتك.. تعرف أننا في الأزاريطة طبعًا. سوف تفاجأ بأن البرج الذي يبلغ ارتفاعه ١٣ طابقًا والذي تسكن فيه يميل.. يميل.. بزاوية حادة كأنه برج بيزا المائل، وفي النهاية يلامس البناية التي على الجهة الأخرى ليلثمها في نهم جائع. تخيل أن

تنتقل في لحظة من ساكن في شقته إلى متشرد يبحث عن مكان في مساكن الإيواء، وهناك في العمارة المنهارة تترك مالك وثيابك وذكرياتك وجهاز الكمبيوتر الخاص بك وصورك وأحلامك.

قال محافظ إسكندرية - التي تخصصت في انهيار العقارات- إن هناك ١٧ ألف عقار مخالف في المحافظة. هذا يعني ١٧ ألف قضية رشوة و١٧ ألف قضية فساد محليات. هذا وباء يجتاح مصر.. البناء على أراض زراعية وزيادة أدوار مخالفة، وقد تفشت الظاهرة إلى درجة أن تصحيحها شبه مستحيل. قديمًا قال زكريا عزمي إن الفساد في المحليات وصل للركب.. واضح أنه اليوم قد وصل الجباه.. نحتاج إلى أسطوانة أكسجين تسمح لنا بالتنفس تحت بحر الفساد الذي أغرقنا. المشكلة كذلك أن هناك أطرافًا في غاية القوة تمارس الفساد وهي قادرة على أن تتمتع كذلك بحماية الحكومة.

بالطبع عندما تبحث عن مالك العقار تكتشف شخصية (الكَحُول) الذي رأينا سهرة كاملة عنه في قناة الجزيرة منذ عامين، والذي يتحمل مواجهة الجهات القانونية مقابل مبلغ من المال، بينما يفر المالك الحقيقي بماله الحرام.

من جديد ذكرني هذا بما حدث في ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٨.. وهو بالصدفة اليوم السادس من رمضان. انهيار

الدويقة المروع الذي قضى على حياة الكثيرين، لكن الكارثة الحقيقية التي تحطم الأعصاب هي هؤلاء الذين ظلوا أحياء تحت الأنقاض بينما الحفارات عاجزة عن الوصول لهم، وكانوا يتصلون من هواتفهم المحمولة إلى أن نفد الشحن، وفي النهاية تم اعتبارهم شهداء. كانت هذه حادثة أخرى تحطم الأعصاب، لكننا نحمد الله على عدم وجود ضحايا في عمارة الأزاريطة.

ليس العيب هنا عيب الحكومة بالطبع. كان الراحل جلال عامر يقول: المشكلة ليست في الترزي فقط.. هناك عيب في القماش نفسه!. هناك بالفعل مشكلة مزمنة في الشعب المصري؛ الذي اعتاد الإهمال والغوغائية ولديه نقص مزمن في الضمير، لكن يبرز السؤال المنطقي: أين رقابة الدولة؟. مهمة الدولة ألا يتحول المجتمع إلى غابة وهي قادرة على ذلك.

كما قلت لك: يصعب أن تشعر بالملل في مصر. في كل يوم حادث جديد مثير، متجدد وفريد من نوعه، بينما يمكننا فهم لماذا ينتحر الناس في السويد من فرط الملل مع كل هذا التقدم وكل هذه الحضارة. إن مطاردة من الكلاب المسعورة في الظلام لقمينة بشفاء أي سويدي يرغب في الانتحار.

موهبة الكذب

استيقظنا ذات صباح على الخبر الغريب التالي الذي نشرته جريدة لها احترامها، وكتبته صحفية اسمها شيماء النقباسي:

تحولت كلية الطب بجامعة طنطا هذه الفترة إلى صداع في رأس وزير التعليم العالي والبحث العلمي الدكتور خالد عبدالغفار فتوالت الأزمات داخل الجامعة بداية بإقالة الدكتور جمال موسى مدير المستشفى العالمي ورئيس قسم الجراحة قبل أيام قليلة من بلوغه سن التقاعد «المعاش» وتحويله للنيابة العامة للتحقيق في المخالفات المالية والإدارية، والإفراج على ذمة التحقيقات بكفالة مالية. لم تهدأ نيران الغضب التي أشعلتها المشاكل والأزمات وإهدار المال العام والتربح وسوء الإدارة، إلا بالإطاحة بالدكتور أمجد عبدالرؤوف عميد كلية الطب على حسب ما ورد من مصادر مؤكدة إقالة عميد الكلية الطب وسيتم الإعلان رسميًا خلال الساعات القليلة المقبلة. وأوضحت المصادر أنه تم ترشيح الدكتور شريف شحاتة للقيام بمهام عميد كلية طب طنطا كقائم بعمل العميد لحين تعين عميد جديد للكلية.

كان الخبر عجيبًا، فلم تكن هناك أي بوادر تنذر به على الإطلاق، وقد بدا لنا هذا كصدمة كهربية. بعد يومين أو ثلاثة ظهر التصحيح التالي في عدة صحف:

نفت جامعة طنطا ما تردد في بعض المواقع الإلكترونية وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي بشأن

إقالة الدكتور أمجد عبدالرءوف عميد كلية الطب، كما نفت الجامعة تحويل الدكتور جمال موسى مدير المستشفى العالمي السابق إلى النيابة العامة.

وكان الكل يعرف هذا لأن د. أمجد عبد الرءوف يمارس عمله من مكتبه كالعادة، ود. جمال موسى يعاني بعض المشاكل الصحية لا أكثر. وفي خبر آخر: «نفى الدكتور إبراهيم سالم، القائم بعمل رئيس جامعة طنطا، ما أثير عن إقالة الدكتور أمجد عبدالرءوف عميد كلية طب جامعة طنطا أو استبعاده من عمادة الكلية. وقال سالم في تصريحات، لـ«الدستور»، إن عميد كلية الطب كان حاضرًا وقت انعقاد مجلس الجامعة اليوم، مناشدًا المؤسسات الصحفية والمواقع الخبرية تحري الدقة والموضوعية وعدم تداول أي أخبار دون الرجوع لمصدرها. وأكد القائم بعمل رئيس الجامعة، أن عميد كلية الطب سيتخذ الإجراءات القانونية ضد محرري الخبر المغلوط.»

كلا الرجلين صديق عزيز لي، لكني لا أتحدث هنا بشكل شخصي للدفاع عن أصدقاء. أتحدث عن أسلوب غبي في الكذب، وهو الكذب الذي يمكن أن تفضحه بمكالمة صغيرة تستغرق نصف دقيقة. أي أن المقصود هنا هو الشوشرة لمجرد الشوشرة، وثمة طرف خبيث قد دس الخبر للصحفية التي يمكنني أن أتخيل شكلها بسهولة تامة! بينما الكذب البارع يقتضي أن يكون هناك بعض الغبار والضباب أولاً.

كانت هناك إشاعة قوية منذ أعوام عن جعل سن المعاش خمسين عامًا وأن القرار نفذ فعلاً. قلت لناقلي الخبر إن هذا لا يمكن أن يحدث فجأة وأن معنى هذا أنني سأخرج إلى المعاش خلال شهرين، وإن نصف أعضاء القسم سيجلسون في بيوتهم غدًا! لكنهم قالوا في ثقة إن هذه هي الحقيقة وإنها مأساة لكن لابد من قبولها. لم يكلفني الأمر سوى خمس دقائق لمكتب شئون الأطباء في الكلية عرفت منه أن الخبر مزور، ويقوم بالكامل على فاكس مزيف أرسله مجهول للكلية. برغم أن كثيرين صدقوا الخبر فإن هذا نموذج للكذب الذي يمكن نقضه خلال نصف دقيقة.

يبدو أن د. جمال موسى ضحية محببة لهذا النوع الغريب من الكذب المفضوح الذي تنهيه مكالمة هاتفية. منذ عام جعلوه يدير شبكة من تجار الأعضاء، وحشروا معه أسماء طبيبات يستحيل أن يشاركن في شبكة لتجارة المربى. وألحقوا اسم د. توحيد موافي الذي هو خارج مصر منذ أعوام طويلة.

قبل وفاة الفنانة شادية توفيت مائة مرة في الصحف والمواقع الاجتماعية، وفي كل مرة يتم نفي الخبر بسهولة نسبية. لكن عندما توفاها الله فعلاً فقد ظل الناس لا يصدقون لمدة يوم، وإلى أن نشر الخبر في مواقع عالية المصداقية.

هناك أناس تجد لذة فاحشة حقيقية في الكذب. والنقطة الأهم هي أنهم لا يخجلون عند افتضاحهم.

هذه من مواهب الكذب المهمة أن تكون أقوى من الافتضاح وألا ينكسف طبعك. بعض الكذب غبي جدًا يذكرنا بالقاعدة القديمة (على الكذوب أن يكون ذكورًا)، أي على الكذاب أن يتذكر ما قاله من قبل حتى لا يقع في تناقضات لا تنتهي كلما حكى القصة. وهي طريقة يعرفها محققو الشرطة جيدًا. لو حكى القصة عشر مرات لغير شيئًا في كل مرة.

أحيانًا تكون الكذبة متقنة ويصعب تبينها، وتترك دائمًا رائحة الشك (لربما كان هذا صحيحًا) وهذا أخبث كذب ممكن. من ضمن هذه الأكاذيب هل كان الفنان فلان والفنانة فلانة متزوجين؟ هل المخابرات هي من قتلت فلانًا أم هو انتحر؟.. الخ..

عندما توفي نجل الرسول (ص) إبراهيم، قيل إن كسوفًا شمسيًا غمر العالم، وأظلم الجو. هذه ثمرة سانحة يثبت فيها نبوته وقدراته، وقال الناس إن الشمس كسفت لموت إبراهيم، لكن الرسول خرج على الناس وكان مغضبًا حانقًا، وقال للناس قولته الشهيرة عن أن الشمس والقمر من آيات الله ولا تكسفان لموت أحد أو حياته. ما كان أحد ليكذبه لو قال العكس، لكن هذا درس في الدقة.. ببساطة ينفي هذا لأنه لم يحدث.

الصدق والأمانة.. أنبل ما في الوجود، بينما الكذب وسيلة قذرة جدًا وغير عادلة للتلاعب بعقول الناس، خاصة إذا وثقوا فيك.

تأثير الهالة

ذكريات الطب لا تنتهي، ولكم من مرة قلت فيها:

السؤال ليس هو لماذا يصير بعض الأطباء أدباء؟ السؤال هو كيف لا يصير كل طبيب أديبًا؟

وهي الإجابة التي يردّ بها المرء على السؤال الممل: ما علاقة الطب بالأدب؟

عامر صديقي – الاسم مستعار طبعًا – كان يملك تلك الطلعة الوقور الموحية بالثقة. حتى ونحن طلاب كان مهيبًا له نظرة هادئة راضية تشع بالحكمة وفهم الكون. لا أعتقد أنني رأيته في أي لحظة من حياتي من دون شعر شائب، خاصة شعر الفودين الذي يذكرك بشيب «جمال عبد الناصر». لابد أنه ولد شائب الشعر. بينما كنا نحن الصبية المراهقين نبدو كذلك بالضبط: صبية مراهقون شديدو الخفة والسخف.

كان عامر يدخل أي امتحان شفهي، فينبهر به الأستاذ على الفور ويكتفي ببعض الأسئلة السطحية ثم يشكره ويصرفه، بينما نفس الأستاذ كان يؤمن أن باقي الطلبة أوغاد شديدو الرقاعة يجب أن يعاقبوا بغلظة. وكانت الفتيات يؤمن أنه وسيم موح بالثقة ويحُمن من حوله بلا توقف لكنهن لا يجرؤن على الاقتراب من ينبوع الحكمة هذا.

على أن عامرًا كان إذا تركت له فرصة الكلام والاسترسال فيه يكشف عن أحمق حقيقي مسطح الآراء من طراز (النفوس تغيرت – التلفزيون يعرض مسلسلات عارية).. حمار حقيقي جدير بمقولة «آن

للشافعي أن يمد رجليه». لكن برغم هذا لم نكن نمد أرجلنا في حضرته، فقد ظل موحيًا بالثقة حتى بعد كل هذا الكلام الفارغ.

عامر كان يُستدعى لفحص الجيران منذ كان في السنوات الأولى من الكلية، وكانت له نظريات خاصة مدمرة؛ منها أن أي غيبوبة هي نتيجة لنقص البوتاسيوم وأي تفاعل حساسية يحتاج لحقنة أدرينالين. عالج الكثيرين جدًا منذ كان طالبًا لا يعرف اسم عقار واحد، ومن الغريب أن المرضى كانوا يشفون من تلقاء أنفسهم.

في سنة الامتياز كنت أسهر وحدي في استقبال الطوارئ، وقد قمت بإدخال حالة لمريضة مصابة باشتباه التهاب في الزائدة الدودية.. الطبيب المقيم قال هذا وطلب أن نلاحظها، لكن المريضة كانت هستيرية وأهلها مجانين.. كانت تصرخ في فراشها طيلة الوقت وتقول تعبيرات أدبية رائعة على غرار (أنا قلبي شجرة بيقطعوا جدورها - أنا بطني خراج مفتوح) وهي تعبيرات تكفل لي جائزة نوبل في الأدب لو كنت قد دونتها. مع كل شكوى منها يهرع أحد أقاربها إلى غرفتي ليصارحني بأن المستشفيات مكان قذر، وأنا لا أصلح طبيبًا.. الخ ... المشكلة أنها بالفعل كانت قد تلقت أفضل علاج ممكن.

تصادف أن وصل صديقي عامر، وهو كعادته وقور موح بالثقة يلبس بدلة كاملة.. فتوسلت له أن يلعب دور طبيب أكبر سنًا ويفحص هذه المريضة ويطمئن أهلها.

هذا ما فعله بالضبط.. دخل العنبر فتفرق أهلها من حول الفراش وساد صمت رهيب. وقفت جواره متظاهرًا بالذل.. هذا هو الأستاذ الكبير الذي سيقول كلمته الأخيرة. ظلت المريضة تنظر له في رهبة فتحسس نبضها وهز رأسه، ثم قال في ثقة:

أنت أفضل حالاً.. لكن لابد من الانتظار قليلاً. فقط أرجو ألا تزعجوا د. أحمد فهذا يجعله متوترًا، والمتوترون يرتكبون أخطاء

كساحر جاء من لا مكان ترك الفراش وأنا أتبعه في رعب وتوقير متذكرًا كل حرف في كتاب (فن صناعة النجم) الذي يشرح لك كيف تجعل من شخص ما محط الاهتمام. وخارج العنبر وقف يرد على أسئلة أهلها المتلاحقة. أهلها الذين تجاهلوني تمامًا وحالهم يقول: لماذا لا يجلس هؤلاء الأطباء العظام في الاستقبال ويفحصون الحالات بدلاً من المعتوهين الذين نقابلهم؟ وعندما انفردت وعامر في غرفة الاستقبال أطلقنا الضحكات المكتومة. وهكذا مرت الليلة كلها دون أن تصرخ المريضة أو يضايقني أهلها. وفي الصباح تبين أنها غير مصابة بشيء.

بالطبع لك أن تتوقع أن عامرًا افتتح عيادة صغيرة في أحد أحياء المدينة، ونال وظيفة بالجامعة. كانت عيادته مزدحمة دائمًا برغم أن قدراته الطبية لا تتجاوز قدرات طالب طب. وقد زود العيادة بنظام ملفات إلكتروني

بسيط، فصار بالنسبة للمرضى الطبيب الذي يفحصهم بالكمبيوتر.

قرأت فيما بعد تعبير «Parvenu» الذي يعني الشخص الذي يبدو على غير حقيقته.. الأستاذ الجامعي الذي يملك حشدًا من الشهادات دون أن يفقه شيئًا. خطر لي أن هذا المصطلح خلق من أجل عامر. هناك كذلك تعبير «Halo effect»، تأثير الهالة.. الشعر الأبيض المحيط برأسه كهالة يقنع المرضى والباحثين المنافسين.

تأكدت من تأثير الهالة عندما كان يدخل امتحانات الترقية، فلا يسألونه تقريبًا.. غالبًا يتبادلون معه عبارات المزاح ثم يرقونه... في إحدى المرات لم يكن لديهم وقت كاف فقاموا بترقيته. ثم إن صاحبنا سافر للخليج.

توقعت له أن يعود مضروبًا بالأحذية، لكني توصلت إلى أنه يملك خليطًا من تأثير الهالة ومن الحظ المخيف.. يقضي في الخليج خمسة أعوام وهو لا يفقه شيئًا، وبرغم هذا هم يحبونه. ويرسل لي صورًا وسط أصدقاء يلبسون الغطرة والجلباب يعانقونه في مرح. ثم يرجونه بحرارة أن يبقى معهم للأبد لكنه يعتذر لأن مستقبله في الجامعة ينتظره. هكذا عاد من هناك حمارًا ثريًا ينظر له المجتمع بتوقير وإجلال.

هكذا في سن الأربعين توصلت إلى أن سر النجاح في الحياة ليس أن تكون بل أن تبدو.. وعليك أن تمتلك حظًا مذهلاً يشبه حظ الجندي الذي سقطت قنبلة في

حجره ولم تنفجر، وفهمت مشاعر البطة دونالد – أو بطوط – تجاه ابن عمها المحظوظ المستفز داك.

لكن عامرًا أصر في ذلك الوقت – لدى عودته من الخليج– على أن يهاجر لكندا، وقد نصحته مرارًا أن يبقى بقدراته المتواضعة هذه، لكنه أصر. قلت لنفسي إن حظه الجبار وتأثير الهالة لن يخذلاه أبدًا.

بعد أعوام سمعت أنه متورط في كارثة.. يبدو أن نظام التأمين لم يخدمه أو شيئًا من هذا القبيل، وهو قد تسبب في عاهة مستديمة لمريض.

قلت لنفسي إن الدروس المستفادة هي أن الحظ الحسن لا يجب أن يظل حسنًا للأبد، وتأثير الهالة ليس فعالاً دائمًا خاصة في بلاد متحضرة متقدمة.

هناك لحظة ينكشف فيها كل شيء، وعندها ينهار كل شيء فلا تلومن إلا نفسك. على من لا يملك خوذة فولاذية أن يبقي رأسه تحت الأعشاب.

مكان تحترمه

أهم إنجاز في ذلك المكان هو أنه خلق نظامًا system ذاتي الحركة لا يتوقف لغياب شخص. كل شيء يتحرك بنظام ودقة وكل فرد جديد يجد نفسه في الموضع الصحيح الذي ينتج فيه، ثم ينتقل العلم كالأواني المستطرقة ممن هو أعلى إلى من هو أقل. هذا هو ما يميز السويد وفرنسا مثلاً عن مصر. أتكلم طبعًا عن كتلة الأحلام التي بنوا بها مركز مجدي يعقوب في أسوان.

تلقيت دعوة كريمة من شباب المركز، فذهبت لأمضي يومًا رائعًا. الكلام عن السلبيات قد بلغ اليوم من المرء كل مبلغ، لهذا سرني جدًا أن أرى مكانًا يحمل الأمل والجمال. دعاية؟ بالطبع هي دعاية.. يفخر المرء بأن يكون جزءًا من الآلة الدعائية لهذا المكان، فلعله الشيء الوحيد الصحيح الذي فعله في حياته، خاصة إذا لم يتقاض مليمًا ليقول هذا الكلام.

الانطباع الأول، لي هو أن المكان صغير جدًا ويختلف عن تخيلاتي.. كنت أتصور أنه أقرب لمدينة كاملة، وكنت أحسبه يطل على النيل - كما رأيت في حلقة تلفزيونية - فوجدت أنه موجود في أفقر منطقة من أسوان في شارع كسر الحجر. وأولوية خدماته هي لأهالي الصعيد وللفقراء.

الانطباع الثاني، هو السيطرة المذهلة للشباب على المكان.. أعتقد أن مقابلة من تجاوز الخامسة والأربعين أمر صعب جدًا. والجو برغم انضباطه مرح أقرب لشلة

من الأصدقاء.

الانطباع الثالث، هو أن كل شيء يحمل بصمات وأفكار السير مجدي يعقوب، وهم يعشقونه عشقًا حقيقيًا، غير أنني لم أر الرجل العظيم للأسف لأنه يتواجد عشرة أيام فقط كل شهر.

الانطباع الرابع، هو أنه مكان منظم جدًا نظيف جدًا يمكن أن تراه في الدنمارك أو النرويج مثلاً. ويبرهن المكان على أن التمريض أهم جزء في مهنة الطب.. التمريض على أعلى مستوى بالفعل، وفي بعض العنابر تكون هناك ممرضة واحدة لكل سرير.

عامة يبدو المكان قوقعة نظيفة منعزلة بعيدة عن العالم المضطرب بالخارج، وعن التدهور العام الذي يجتاح كل شيء. ولسوف تشعر أن الأطباء الشبان يفرون من ضغوط العالم الخارجي إلى المركز. وكما تقول د. سها رميح رئيس قسم التصوير المتطور للقلب: «ليست هناك وسائل ترفيه كثيرة في أسوان، لذا تحول المركز إلى الملتقى الرئيس لأطبائه».

الأطباء من خارج أسوان يقيمون في أحد الفنادق الفاخرة بالمدينة، أو ينالون بدلاً يسمح لهم باستئجار شقة. لا أعرف كم دخل الطبيب هنا، لكن أعتقد أنه يكفل لهم حياة محترمة من دون حاجة لفتح عيادة. تأميم الطب! أعط الطبيب دخلاً محترمًا على أن يكون المستشفى همه الأول والأخير، بدلاً من أن تعطيه ألف جنيه في الشهر وتتذمر طيلة الوقت من (التزويغ)

والإهمال.

عندما دخلت الكافتيريا تذكرت صورة قديمة لديك تشيني عندما كان يزور قاعدة أمريكية عسكرية، وكيف حمل الصينية بيده ووضع طعامه ثم جلس إلى منضدة وسط الجنود. هنا يأكل الجميع نفس الطعام ويجلسون معًا، عمالاً وممرضات وأطباء ورؤساء في جو اشتراكي محبب للنفس.

تقول أرقام المركز لعام ٢٠١٥ إن المركز شهد إجراء ٢٨٠٨ عمليات جراحية أو تداخلية. تم فحص ١٣٣٩٠ مريضًا في العيادة الخارجية. تم في عام واحد عمل ١٣٢٠ قسطرة قلب و٣٠٧ حالات علاج الجلطات الحادة بالقسطرة Primary PCI.

كل خدمات المركز مجانية مهما بلغت تكلفتها ومهما بلغ سعر الدواء، فالمركز يعتمد بالكامل على التبرعات. وطريقة الدخول هي البساطة ذاتها: أرسل ورقك وتحاليلك ولسوف يحددون لك وقتًا للمناظرة. وفي الزيارة الأولى يتم عمل تخطيط قلب وفحص بالموجات فوق الصوتية.

لا توجد خواطر في الدخول ولا وسطاء.. الأولوية لما تقرره لجنة مناظرة الحالات ثم أهالي الصعيد هم الأهم. هناك هامش ١٥٪ من الحالات للتوصيات التي لا مفر منها مثل أخت وزير أو زوجة محافظ، وهو تفكير واقعي في مصر طبعًا.

قضيت يومًا مبهرًا، خاصة أن أمراض القلب ليست

تخصصي، وقد أثار دهشتي كل ما يستطيعون القيام به حتى شعرت أن علمي أمراض الكلى وأمراض الكبد يتواريان خجلاً. مع د. سها رميح ومحمود نسيم رأيت – لأول مرة – الرنين المغناطيسي يستعمل لتصوير القلب. جهاز مساعدة البطين VAD وهو جهاز معقد يغني المريض عن زرع القلب. المريض يحمل بطارية يشحنها يوميًا ويبلغ المحافظة ومرفق الكهرباء حتى لا تنقطع الكهرباء عن منطقته!

هناك كذلك الاستبدال غير الجراحي للصمامات TAVI.

كنت أحسب العيوب الخلقية للكبار خارج نطاق الطب، لكن لديهم وحدة لعيوب القلب الخلقية لدى البالغين GUCH. أما عن العيوب الخلقية للأطفال وحديثي الولادة فهو مكان مذهل.. يمكنك أن ترى المرضى صغار السن في حجم كف يدك وهم يتلقون رعاية صارمة. قال لي أحد الجراحين إن رباعية فالو تحتاج لثمانية أيام حتى تجرى الجراحة ويتحسن الطفل. أصابني هذا بالذهول لأن رباعية فالو معقدة لدرجة يصعب تذكرها، وكان معناها بالنسبة لي تدمير حياة الأبوين إلى أن يموت طفلهما. دعك من تغير أماكن الشرايين العظمى TGA. ما نوع الجراح الذي يجري جراحة معقدة كهذه لرضيع؟ كلا.. هو لا يبدو مثل لستر وهالستد وكورفوازييه بالشعر الأشيب والسوالف الكثة والغليون.. إنه مجرد شاب مرح تشعر أنه جاء من (الجيم) حالاً وسيذهب للكافيه للقاء أصحابه.

على العموم طور المركز جراحات قلب الأطفال التداخلية مما خفف العبء عن قسم الجراحة. هكذا يتم علاج ثقب الأذينين والقناة الشريانية المفتوحة وثقب ما بين البطينين من دون جراحة كبرى.

مركز فسيولوجيا القلب قام في عام واحد بأكثر من ١٥٠ عملية اجتثاث ablation وزرع منظمات ضربات. البروفسور بروجادا خبير عالمي في فسيولوجيا القلب الكهربية وله مرض شهير باسمه، وقد استفاد منه المركز كثيرًا.

هناك وحدة أبحاث طبية معقدة تعنى بعلوم الحياة والهندسة الطبية والبحث الطبي، وقد رأيت نموذجًا لقلب مريض تم تكوينه بالكمبيوتر بحيث صار تمثالاً يمكن أن تضعه في كفك.

لحظة!!

الشفرة زرقاء! هناك مريض قد توقف قلبه... الجرس يدق... يتركك الأطباء ويجرون بسرعة إلى العنابر وكل واحد يعرف مهمته بالضبط. بعد قليل يعودون لك وهم يضحكون.. لقد عاد قلب المريض يخفق.

نعود لكلامنا إذن ....

المحاضرات منتظمة في المركز.. محاضرات عامة ثم محاضرات أسبوعية خاصة لكل قسم. كما أن طبيبة أجنبية تدعى كارين تأتي للمركز كل شهر لعمل الجراحات المعقدة، هذا بالطبع مع العمليات التي يختارها السير العظيم ليقوم بها. لكن الفريق المصري

صار يؤدي أكثر من ٨٠٪ من جراحات المركز.

عدد العاملين يقترب من ٦٠٠. لن أشغلك بالتكوين الإداري للمركز، وأطلب أن يسامحني من نسيت اسمه وسط حشد الأسماء التي دونتها في ذهني، لكن لابد من ذكر اسم د. مجدي اسحق عن مجلس الأمناء، ود. وائل عبد العال المدير الطبي ونائب رئيس المجلس.

أحببت د. محمد زكريا المدير الإداري للمركز، وهو شاب نشط ودود من كفر الشيخ. رأيت كيف يتعامل مع مبالغ طائل بلا تعقيدات روتينية. وقرأت تقرير الصيانة الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة في المركز. وقت الرحيل كانوا يتكلمون عن حلقة «صاحبة السعادة» التي تم تصويرها مع السير مجدي يعقوب منذ أسبوع.

المكان يشهد بأن الإدارة البارعة الأمينة قادرة على تحقيق المعجزات، وقد رأيت مركز الكلى في المنصورة قبل هذا.. في لحظات بعينها كان بوسعي أن أصدق أنني في ألمانيا أو فرنسا مثلاً.

هذا مكان يدعو للتفاؤل. أعرف أن بعض التعليقات (الموضوعية) ستقول لي: «الأمر ليس كما تتصور.. معلوماتك ناقصة.. هناك مخالفات جسيمة».. الخ.. كالعادة، لكني بصراحة لن أصدق. عندما يتحمس شخص كئيب مثلي لمكان إلى هذا الحد فلابد أنه مكان رائع!

صفحة غير شخصية

لا أملك صفحة على فيسبوك، وإنما هي صفحة أو صفحتان أنشأها لي بعض الأصدقاء. يسبب هذا بعض المشاكل لأن أصدقاء كثيرين يكلمون مدير الصفحة باعتباره أنا. أحيانًا أدخل الصفحة فأجد عبارات مختارة من بعض قصصي.. المشكلة هي أن توقيت هذه العبارات لا يكون مناسبًا على الأرجح. في إحدى قصصي قال بطل القصة إنه يحب أيدي الفتيات الباردة لأنها تشعره بالحساسية والرهافة، بينما الأيدي الدافئة توحي بالكسل والدعة. عبارة قد تكون مقبولة في سياق قصة، لكن نشرها بينما مصر كلها تبكي بعد مذبحة بورسعيد أو بعد عملية إرهابية كبرى في سيناء مثلاً، أمر غير مقبول على الإطلاق. دعك من هواية لدى مديري الصفحات ألا ينشروا اسم قائل العبارة ولا متى قالها. هكذا تُنشر هذه العبارة على أنها رأيي الخاص وليست رأي بطل القصة، ولا يذكر أحد التوقيت ليخبر القراء أن هذه جملة من قصة نشرت منذ عشرة أعوام!.

الآن يمكنك أن تتخيل كم الشتائم التي تنهمر على رأسي من جراء تعليق كهذا (أصل البيه مايع). ولأسباب كهذه كففت عن قراءة التعليقات نهائيًا منذ زمن بعيد. أحيانًا يتكلم بطل القصة بغرور أو وقاحة أو يكون ملحدًا.. يقوم الأدمن بنقل الجملة كما هي من على لسان البطل ويكتب اسمي جوارها!.. هكذا تجد لي عبارات خالدة مثل: «يجب قهر الضعفاء - أحمد خالد» أو «إنني أقدم للأجيال القادمة قطوف الحكمة التي لن

يجدوها في أي موضع آخر - أحمد خالد» أو «من الواضح تمامًا أن الكون أوجد نفسه بلا حاجة لخالق - أحمد خالد».

قلت للأصدقاء محرري الصفحات مرارًا إن عليهم كتابة مصدر الاقتباس وقائله بدقة، أو لا يكتبوا شيئًا على الإطلاق. ينطبق الأمر نفسه على التويتات.. أنا لا أتعامل مع تويتر ولا أعرف ما هو بدقة، لكني أجد تويتات مستفزة حقًا تحمل اسمي.. لقد كتبتها فعلاً لكن على لسان أبطال قصصي؛ ومنهم الوغد والمغرور والزاني والكذوب والملحد.. أما أن تجد تويتة تحمل اسمي تقول: «أنا اكره الربيع والأزهار والأطفال» فأنت تشك في عقل من كتب هذا الكلام.

غرور

مهما اعتقدت في نفسك الموضوعية، وأنك أبرع وأذكى من أن يصيبك الغرور، فثمة لحظة لا شك فيها تفقد فيها تلك الدفة وتعتقد أن ما تقوم به هو الشيء الصحيح فقط. الآخرون مضللون لا يفهمون.

جربت هذا الشعور المقيت ذات مرة، عندما حضرت إحدى حفلات التكريم في مكتبة مشهورة، وكما يوضح العنوان فهو حفل تكريم، فلا مجال للمناقشة أو الانتقاد، وإنما هو حشد من ذكر المآثر والنقاط الإيجابية. ظللت جالسًا لمدة ساعة أصغي لعبارات الإطراء التي لا أستحق ربعها. صدق أو لا تصدق: شعرت بروحي تضيق وأفقي يضيق، ورأيت صورة وهمية لنفسي أكبر بمراحل من صورتي الحقيقية.

بدأت أعتقد أنني معصوم وأن من يجادلني مغيب لا يعي ما يقول. لقد ضاق صدري بأي انتقاد أو لوم مهما كان بسيطًا واهيًا، مع أنني دخلت المكان أقرب للتواضع والميل لتقليل شأن الذات. لهذا – وقد شعرت بأن نفسيتي تتغير فعلاً – بدأت أشكر الحضور ثم أتحدث عن النقاط السلبية التي لا تروق لي في شخصي وفي كتاباتي. تذكرت هنا ما يفعله بعض المتصوفين عندما يعمدون إلى تقبيل أيدي الفقراء على سبيل كسر كبرياء النفس. والنقطة الأخطر هي أن غرورًا من نوع آخر بدأ يتكون في ذاتي: الغرور لأنني متواضع ولأنني أفعل هذا كله!.

عندما عدت لبيتي خطر لي أن الأمر كان شبيهًا

بالسحر.. هذا التغيير أحدثته في نفسي بعض عبارات الإطراء لمدة ساعة فقط، فأي اضطراب وتشويه يحدث لمسئول كبير عندما يتلقى المديح طيلة حياته، وهذا المديح قد يرتفع جدًا ليدنو من العبادة؟. لا شك أن لدينا – معشر المصريين والعرب عامة استعدادًا فطريًا لإفساد كل مسئول بهذا المدح الزائد.. كل أفكاره عبقرية.. كل أعماله إنجازات.. كل خصومه مغيبون أو عملاء.. في النهاية أنت تخلق صنمًا لا يقبل النقاش ولا يعترف بالخطأ. لا شك في أن نقطة البدء الصحيحة تكمن في اعتبار الوزير أو الرئيس شخصًا عاديًا يرتكب أخطاء، ولابد من مصارحته بها.

في أعوامه العشرة الأولى كان حسني مبارك قابلاً للنقاش وكان يصغي لمعارضيه، ويعرف ما تقوله صحف المعارضة، ثم نال منه السحر المصري الشهير فلم يفلت من عقدة (كلي القدرة والحكمة) هذه.

رد على الجميع

تذكرت هذه القصة مع دنو عيد الفطر وكل عام وأنتم بخير. التعامل مع الإيميل وواتسآب يحتاج لحذر كبير لأنك قد ترتكب خطأ فادحًا، وقد جربت مع برنامج الواتسآب أن تكتب في مجموعة أخرى ولا تفطن إلى مكانك إلا بعد نشر الكلمات التي قد تكون خاصة جدًا، كما أن للبرنامج خاصية شيطانية هي أن ينسخ مقاطع كاملة من حواراتك السابقة، فإذا ضغطت على زر الإرسال على أنه زر المسح القهقري فقد نشرت للجميع محادثات شخصية جدًا.

ذات مرة أرسلت معايدة جماعية بمناسبة العيد لمجموعة هائلة من الأصدقاء، منهم رؤساء تحرير صحف قومية ومعدي برامج وأقاربي وأخوة زوجتي ومجلات خليجية ورئيس الجامعة وأكثر من عميد كلية والأستاذ أسامة غريب وبلال فضل وابراهيم عيسى .. و ... من ضمن الأسماء كانت صديقة قاهرية قابلتها في القاهرة مرتين مع زوجها، وكان اللقاء على كوب شاي في مقهى قريب من التحرير. المهم أن الخطاب وصلها فردت عليه قائلة:

ـ«شكرًا يا باشا.. مستنيينك في القاهرة عشان نروقك زي كل مرة!».

وأرسلت الخطاب.. لم تضغط على زر الإجابة ولكن على زر الإجابة للجميع؛ أي أن هذه الصيغة وصلت لستين اسمًا على الأقل!. بالطبع كان (روقان كل مرة) السابق لا يتجاوز كوب شاي معها وزوجها، ولكن قل هذا

لإخوة زوجتي.. قله للسادة في دار الشروق والمؤسسة العربية الحديثة ورئيس الجامعة وعدة عمداء كليات.. قله لهيئة تحرير مجلات دنيا الاتحاد وباسم وماجد وصدى. فيما بعد اعتذرت لي كثيرًا لكن الأذى قد تم على كل حال.

منذ ذلك الحين صرت أتوجس خيفة كلما أرسلت خطابًا لعدة عناوين. في كل مرة أفترض أن كل هذه العناوين ستقرأ الرد..

للواتسآب قصص مرعبة أخرى، لكن لربما أحكيها في مقال آخر.

حديث عن العيد

كل عام وأنت بخير.

عندما أشم رائحة الضأن القوية تنبعث من الخراف المربوطة أمام دكان الجزار المجاور، فإنني أعرف أن عيد الأضحى قادم قبل أن يستوعب ذهني المعلومة. نوع من الارتباط الشرطي. ابنتي تكره هذه الرائحة كراهية التحريم وتؤكد أن حتى مياه الصنبور تكون لها ذات الرائحة. الحق أنني أحب هذه الرائحة لأنها تستدعي حشدًا من الذكريات.

لم نكن أسرة ثرية، بل هي الأسرة التي ينطبق عليها مصطلح الطبقة الوسطى حرفيًا، لكن ظل الخروف جزءًا من تقاليد العيد، حيث ترسله جدتي هدية لنا كل عام تقريبًا، وكان يصل بحفاوة مع السيارة نصف النقل والحبل الغليظ وصوته الأجش الذي نعتقد أنه (ماء) بينما يعتقد الغربيون أنه (باء). هناك في الحمام يقف كضيف فوق العادة له ثقله وأهميته. ثم يأتي يوم العيد والذبح وبرك الدماء وشعوري الممض بأنني أتخلى عن صديق، وهو الشعور الذي يزول فورًا بمجرد أن يبدأ طهي اللحم.. تتحرك عصارات معدتي وأنتظر في شغف.

بعد الإفطار الشهي يأتي الجزء القذر من العملية – بالنسبة لي– وهو أرغفة الخبز المحشوة بالأرز واللحم التي يأخذني أبي معه لنوزعها في أماكن تجمع الفقر والمتسولين. نجوب أزقة ضيقة وعرة خلف السيد البدوي وفي منطقة سيدي مضيهه والشيخة صباح. هناك تكتشف درجات من الفقر والقبح والتشوه لم

تتصور أنها موجودة قط، ويخرج لك المتسولون من الظلمات يئنون مثل أفلام الزومبي.

كنت في العاشرة مثلاً، وكنت أعتبر هذه الجولة تنغيصًا.. ضريبة لابد منها مقابل متعة لحم العيد، بينما كان أبي يعتبرها أهم لحظات اليوم. وفي المساء نقوم بجولة سريعة أخرى على بيوت الأقارب وطانط فلانة وطانط فلانة. ينتهي اليوم وأنت كتلة عجين من فرط إرهاق.

لكن البيت مليء باللحم، وأنا لا أكف عن الأكل كأنني الطفل المقصود في بيتي بيرم التونسي الجميلين:

استنظره الموت وفي العيد الكبير جاله

في اللحم لما أكل من كل ما طاله

أكل في بيتهم وبيت عمه وبيت خاله

ويعيد غداه كل ما يدخل لأهله ضيوف

كانت معدتي ما زالت في فترة الضمان.. لقد خرجت من المصنع لتوها، وكانت قادرة على هضم الحجارة والزلط.. تعبير (عسر هضم) كان يبدو لي نوعًا من الخيال العلمي الغامض.

بعد يومين تضع لي أمي قطعة لحم كبيرة لكن مشبعة.. في اليوم الرابع هي قطعة في حجم علبة ثقاب صغيرة فأجن رعبًا.. هل انتهى كل شيء بسرعة؟ .. تقول أمي بلهجة الحكيم الذي خبر قسوة الزمن:

ـ«كل سنة وانت طيب.. الخروف خلص!»

مستحيل!... هناك سرقة في الموضوع.. هناك عشرة كيلوجرامات مخبأة في مكان ما من الثلاجة، أو لابد أن نوبة كرم غلبتها فأعطت زوجة البواب خمسة كيلوجرامات.

يكون علي أن اتحمل قسوة الحياة ومرارة انتهاء كل شيء، خاصة أمام طبق البامية القرديحي أو طبق الفول الذي سيأتي في اليوم التالي.. تلك تجربتي الأولى مع التشيروفوبيا أو الخوف من السعادة.. الخوف من قسوة انتهائها.

توفيت جدتي وتوقف معين الخراف السنوي، وكان علي أن أنسى هذه العادة إلى أن كبرت وصارت لي أسرة. كانت هناك عقبة دومًا أمام شراء الخراف، هي أنني خلقت كي يخدعني التجار الأوغاد.. لابد من أن يعطوني خروفًا سقيمًا في منتهى السوء، ثم لابد أن أدرك دائمًا أنني تأخرت جدًا.. دائمًا متأخر جدًا حتى لو بدأت البحث عن خروف بعد رمضان مباشرة أو منذ عام أو لربما كان يجب البدء في البحث بمجرد إنهائي المدرسة الابتدائية. دائمًا ما تدرك أن الخراف الجيدة اختفت وأخذها الأوغاد الآخرون. أما عن الجزار الذي يأتي ليذبح الخروف فلابد أن يسرق الكبد والممبار و.. و.... تكتشف هذا عندما تتفحص زوجتك الذبيحة. أما عند توزيع اللحم فالأقارب والمعارف يبدون اشمئزازهم من مذاق اللحم، ويقول العارفون:

«لأنك وضعت اللحم في أكياس وهو ما زال دافئًا»

يقولونها وهم يلتهمون آخر شريحة من اللحم الضأن الذي أرسلته لهم.

انتقلت إلى مرحلة الأسهم.. وهي أن تشارك في سبع عجل مع مجموعة أخرى. وهنا ظهرت البارانويا في أوضح صورها. يوم العيد لابد أن تراقب العملية: الذبح والتقسيم بعينين في منتصف رأسك فالجزارون يخبئون أطنانًا من اللحم بعيدًا عن عينيك. ثم يأتي بعد هذا دور التقسيم.. أنت تنال أقل من الآخرين في كل الأحوال، واللحم الذي تناله رديء لا يؤكل. مجرد كيلوجرامات من الشغت والدهن، دعك من أن الكمية تقل كل عام. هناك من يصنع ثروات حقيقية من أمثالي.

ثم ينبري أحد الشركاء الحريصين الأذكياء ليهتف - وفي عينيه نظرة تهديد - أنه لابد من تقسيم الرأس على سبعة!.. كيف يتم ذلك؟ وكيف يتم توزيع الأمعاء؟ وماذا يتبقى من الكبد الذي يتم توزيعه على سبعة؟ هكذا تقرر في النهاية أن تتنازل أنت.. فلن تنتظر طيلة النهار وتتشاجر من أجل عين بقرة تعود بها للبيت. طبعًا لتسألك زوجتك عن سبب عدم جلبك للممبار الخاص بالذبيحة.. تركته لهم؟

بعد أعوام من هذا الصراع والسقوط في شباك المخادعين عشرات المرات، قررت أن الحل الأفضل هو شراء الصكوك من المصرف باسم أي من تلك الجمعيات الخيرية المنتشرة.. لايوجد ذبح ولا خداع ولا شركاء متشككون، بل أصعب ما في العملية أن تقف أمام

موظف المصرف لتعطيه المال. وهنا تكتشف أن المبلغ صار تقريبًا ضعف ما كنت تدفعه العام الماضي. بركات تعويم الجنيه تتسلل إلى كل شيء، لكنك تدفع.. في مصر تدفع أولاً ثم تشكو.

على المقهى لوح أحدهم بمبسم الشيشة وسعل وبصق وقال لي:

«كيف تضمن أن ما دفعته لن يصل لجيوب أحد رجال الأعمال أو يستخدم في تجميل مكتب مسئول كبير؟.. أنت تركت مالك في المصرف ولم تر ذبحًا ولا لحمًا ولا دماء».

بصراحة لقد أنهكتني الشكوك وأرهقتني البارانويا. لابد من أن يثق المرء بشخص ما في هذا العالم وإلا فعلينا ان ننتحر جميعًا. لا أنصح أحدًا بشيء لكني وجدت الحل الوحيد المثالي لشخص مثلي يهوى أن يخدعه الجميع. وفي النهاية يعلم الله أن نيتي صادقة.

كل عام وأنت بخير.. لندع الله في العام القادم ألا تكون الأمور أسوأ.. لربما نطمع كذلك في أن تصير أفضل!.

خذوها أنتم

مستشفى الشفاء هو مستشفى مهم جدًا في طنطا.. الاسم زائف طبعًا، لكنهم يعتبرونه عروس الصحة.. إمكانات لا بأس بها، وطاقم أطباء جيد. هذه قصة حقيقية طبعًا.

دكتور عادل هو ترس صغير جدًا بالغ الأهمية في هذا المستشفى، وعليه يقع عبء كل شيء تقريبًا، وهو موضوع في أغلب النوبتجيات، كما أنه أول من يتشاجر مع أهل المريض. هذا مغرٍ جدًا للناس بسبب نحوله وجحوظ عينيه ومعطفه الذي اتسخت أطرافه. يدرك أهل المريض على الفور أن هذا هو الطبيب المخصص للشجار هنا.

المدير لا يستغني عن د. عادل. كل مهمة لا يعرف كيف ينفذونها بدءًا بإعادة رصف إفريز أو إصلاح جهاز تكييف أو تركيب كولدير في الفناء أو طرد الوطاويط التي تحتل الطابق الثالث، يكلف بها د. عادل، وهذا الأخير يعرف من يطلب بالضبط.

في ذلك اليوم جاء عم بسيوني ومعه زوجته.. عم بسيوني فلاح معدم من قرية جوار طنطا. في الستين من عمره، يطل شعره المجعد من فتحة صدره كضبع مسن، وعلى فوده علامة العصفور الأصلية خضراء زاهية.. الزوجة هي موضوع الزيارة برئتها المتليفة تمامًا وهبوط عضلة القلب المتقدم.

اللون الأزرق يغزو كل شيء في جسدها. الأزرق في أطراف الأصابع والكف، وهناك لون أزرق آخر في أعلى

الساعد بسبب محاولات الممرضات للبحث عن وريد، وهي عاجزة عن فرد ساقيها قليلًا في الفراش وليس المشي.

كان الكل يعرف منذ اللحظة الأولى أن المرأة مشروع متوفى. الجثة الحية. ولأسباب كهذه قلل الأطباء زيارتهم لها، وكانت الممرضات يعاملنها بإهمال. بينما يجلس عم بسيوني على الفراش وهو يحاول أن يصب عصير القصب في حلقها صبًا. كان باهتًا فقيرًا ضعيفًا لدرجة أن أمن المستشفى لم يكونوا يرونه وهم يطردون الرجال من عنابر الحريم، أو هم يخلون العنابر من أقارب المرضى. لقد كان دائمًا هناك وسوف يبقى هناك. فقط يخرج ليبتاع لها شيئًا أو يلف سيجارة وهو يقف في الردهة. كَفّ عن إلقاء أسئلة لأن الأطباء لا يلاحظون وجوده ولا يردون على أسئلته أبدًا.

كان يعرف أن زوجته مريضة جدًا وموشكة على الموت.. لكنه لا يعرف أين توجد المشكلة فعلاً. بالنسبة له تبدو عبارة (تليف رئوي) نوعًا من الرطانة اللاتينية. ابناه في العراق، وهو وحيد تمامًا، ومن الواضح أنه سيصير وحيدًا جدًا، فهناك درجات من الوحدة كما تعلم.

جاءت النهاية بسرعة عندما مرت الممرضة على الفراش لتوقظ المريضة:

– «اصحي يا خالة خديجة.. معاد الدوا».

ثم أدركت أن المريضة ماتت.. استدعت الطبيب الذي قاس الضغط بسرعة ثم كتب تقرير الوفاة في ملل،

وتنقل الجثة للمشرحة بعد ساعتين، ثم انصرف لأن المدير يريده.

كانت المشرحة تقع في نهاية ممر طويل كئيب. هي أشبه بحمام تتوسطه مائدة مثقوبة من رخام. وقد نقلوا له الجثة، وراح حسن متعهد المشرحة ينتظر أقارب السيدة.

بعد يوم بدا أن عم بسيوني قد تلاشى.

لم يعد للعنبر ولم يظهر، حتى أن الممرضات لم يعرفن إن كان قد عرف بوفاة زوجته. بل خطر لبعضهن أنه قد توفي في حادث خارج المستشفى.

مر يوم كامل.

نحن في يونيو/ حزيران والطقس حار جدًا.. العرق يغمر كل شيء.

الحياة تعسة بما يكفي فلا يمكن أن نضم لها الرائحة العطنة التي بدأت تنتشر. المدير طلب نائبه وسأله عن سبب الرائحة.. قال النائب إن ثلاجة المشرحة معطلة منذ ستة أشهر. هناك جثة لم يتسلمها أحد.

– «اعمل أي حاجة.. بلغ البوليس».

لكن ظلت الأمور كما هي.. الرائحة تزداد قوة. لابد أن غرفة القتيلات المدفونات في بيت ريا وسكينة كانت رائحتها أفضل من هذا.

الرائحة تتزايد.. بعض الممرضات يفقدن الوعي. الأطباء طلبوا إجازات أو صاروا يفرون من المستشفى

فرارًا، وجمع الباقون مالاً واشتروا كميات هائلة من الفينول والكيروسين والنافتالين.. تم رش كل جزء من المستشفى بهذه المواد، لكن ظلت الرائحة قوية تخرج رأسها من بين الروائح الأخرى قائلة هأنذا.

مر أسبوع في هذا الجحيم.

الحل الوحيد هو استدعاء د. عادل.

– «هو بيعرف الحاجات دي».

باعتبار د. عادل خبيرًا في التخلص من الجثث المتعفنة. هناك في مكتب المدير كانت التعليمات واضحة: عليك أن تجد زوجها ولو من أعماق الأرض.. وليأت ويأخذ هذه المصيبة التي تركها عندنا.

قالها المدير ثم أحرق ورقة التعليمات السرية قائلًا إن عادلًا يجب أن يتصرف من تلقاء نفسه من هذه اللحظة.

هكذا انطلق د. عادل يفتش في ملفات المرضى، وأجرى تحقيقات جديرة بسكوتلانديارد إلى أن وصل إلى أحد عمال المستشفى من قرية مجاورة لقرية بسيوني.

استقل الرجلان أكثر من ميكروباص بناء على تعليمات المدير.. الحر والعرق.. في النهاية وصلا إلى القرية التي يعيش فيها عم بسيوني.

بعد أسئلة عسيرة وتضييق للدوائر أرشدهما فلاح مسن إلى حقل عم بسيوني.

الغروب يسدل أستاره على الأفق.. هناك تحت شجرة

تقف جاموسة مع حمار. وتحت الشجرة يرقد عم بسيوني يشرب الشاي.. مذياع صغير يذيع أغنية لأم كلثوم:

«الليل وسماه ونجومه وقمره..».

يلف سيجارة ثم ينظر للأفق حالمًا، ولم يبالِ كثيرًا بقدوم الزائرين.

– «اتفضلوا شاي».

تربع الرجلان على الأرض والتقطا أنفاسهما، ثم قال الطبيب إن على عم بسيوني أن يأتي لتسلم جثة زوجته التي توشك على التحلل.

«والهوا.. آه منه الهوا».

قال عم بسيوني:

– «اسمع يا بك.. زوجتي دخلت المستشفى فلم أعرف مما كانت تشكو.. ماتت فلم أعرف لماذا ماتت.. اليوم يريدون مني أن آخذها.. أنا عدم المؤاخذة لا أملك مليمًا لزوم الكفن ولا الدفن ولا... أنتم أخذتموها فأكملوا جميلكم وغسلوها وكفنوها وادفنوها!»

– «اسمع.. هذا ليس من حقك».

– «ليس من حقي أي شيء يا بك».

– «سوف نسلمها لكلية الطب ليشرحوها».

– «فليفعلوا يا بك.. فهي قد ماتت على كل حال».

دار جدل طويل، لكنه كان متمسكًا بموقفه. هناك وهو يرقد تحت الشجرة بينما الليل قد بسط ملكوته على

المكان فلم يعد باقيًا سوى وهج السيجارة في الظلام.

- «وطلباتك؟»

قال عم بسيوني وهو ينظر للسماء:

- «غسل وتكفين ونقل بالإسعاف على حساب مستشفاكم.. هذا أقل شيء ممكن».

ظلا يرقبانه في غل. كلما أوشكا على الشجار تذكرا رائحة المستشفى الخانقة ووجه المدير وإغماء الممرضات.

تساءل د. عادل:

- «هل يقبل المدير هذا؟»

قال العامل:

- «سيقبل يا دكتور.. هي لعبة أعصاب وقد ربحها الرجل. ليس لديه ما يخسره».

نهض الرجلان في تثاقل مبتعدين وهما يفكران في رحلة العودة الشاقة، ومن خلفهما أشعل عم بسيوني سيجارة أخرى بينما أم كلثوم تردد:

«ازاي.. ازاي.. ازاي أوصف لك يا حبيبي ازاي؟»

صلوات هامسة

الليل الهادئ الصموت والإضاءة الخافتة.. ربما هو ليس ليلاً، فالعزلة الضوئية التي يوجد فيها المكان تجعلك تعتمد على الإحساس بالوقت، ولسوف تكتشف أنه أضعف الحواس البشرية، وأن ما تحسبه الفجر هو الرابعة عصرًا.. ومنتصف الليل كما توقعت هو العاشرة صباحًا.

صوت هو مزيج من حفيف أحذية الممرضات وصوت (بقللة) الجوزة المميز للمحلول في علاج الاستنشاق، مع المسحة الميكانيكية الرتيبة التي يضفيها صوت جهاز الأكسجين المضغوط كأنه صوت تنفس دارث فيدر في «حروب النجم». هناك أكثر من نوع من السعال.. سعال سهل يلفظ صاحبه هذا المخاط القليل ثم يتقلب ويواصل النوم، وسعال متعسر صعب يوشك على قتل صاحبه ولا ينوي أن ينيمه أبدًا. دعك من صوت الخطرفة والهذيان من عقول فقدت ترابطها وتحكمها بسبب نقص الأكسجين.

شعور غريب هو أن تمارس مشاعر المريض في العناية المركزة.. اعتدت كطبيب أن تكون أنت المخرج على المسرح ولربما صرت الممثلين، لكنك لم تجرب قط أن تمارس دور المتفرج، وأن تشاهد الدنيا في وضع أفقي، مع شعور غامر بالأمان لأنك لن ترتكب أي خطأ.. كيف ترتكب أي خطأ وأنت المريض لا المعالج؟ اترك نفسك قليلاً مع التيار وكف عن التوتر الذي التهم عمرك.. فلتذهب إلى حيث يشاء القدر أن يحملك، إلى أن تقرر

الحكومة أنه يجب إحضار مخبر يجلس فوقك، وينام فوق جثتك في القبر مع جعلك تدفع ضريبة رقاد كاملة.

أسمع صوته العميق – الابن لا المخبر – قادمًا من فراش قريب تفصلني عنه الستائر:

-«يا امه حرام عليكي..»

لا رد.. فقط سعال يترجرج في صدر امرأة عجوز. فيردد:

-«يا امه.. قولي ورايا: لا إله إلا الله.. محمد رسول الله»

لكن المرأة تسعل أكثر ولا ترد فيردد:

-«حرام اللي بتعمليه فيا ده»

ثم يخنقه البكاء.

مع الوقت عرفت أن هذا الرجل يأتي لزيارة أمه السقيمة مرتين يوميًا في موعد الزيارات.. لا يتخلف ولا يتأخر أبدًا.. وكان الممرضون يعرفون جيدًا موعد قدومه، عالمين أنه لن يرحب أبدًا بطريقة العلاج التي يمارسونها؛ حيث يرقدون المرأة على بطنها ثم ينهال أحدهم على ظهرها بضربات عنيفة كأنها سيوف يد الأخ بروس لي.. الغرض هو إخراج الإفرازات من حويصلات الرئة، ثم يتم تقليبها. بعد هذا يولج خرطوم الشفاط في حلقها لتسمع صوت الإفرازات الكئيب.. وووووش!لو رأى الرجل هذه المشاهد لفقد وعيه.

مع كلماته الهامسة المختنقة يمكنك أن ترسم حياة

كاملة. دمعة تسيل من عينك وأنت تسمعه يناجيها في سكون العناية المركزة.. ليس صوته جهيرًا لكن الصمت يجعله كذلك:

«فاكرة يا امه؟... لما كنت أجي أقضي عندك آخر عشر تيام في رمضان كل سنة.. أعتكف عندك. وتقولي لي عاوز أطبخ لك إيه؟ نقوم نكتب لستة أكلات للعشر تيام.. أكلات من اللي كنت باكلها وانا صغير وهالة مراتي مش بتعرف تطبخها.. »

يسود الصمت.. وفي جلسة أخرى تسمعه يكلم الأم التي لا ترد فيقول:

ـ«بعد ما أصلي التراويح في رمضان أنام وأقول لك صحيني الساعة ١٢.. كنت باحب صوتك أوي وانتي بتناديني: قوم يا صبحي.. كنت أعمل نايم عشان تناديني كذا مرة..».

ثم يختنق صوته.. الحق أنه فعل كل ما يمكن كي يقضي على نفسه تأثرًا وألمًا .. يشغل المحمول جوارها لتسمع صوت الآذان..

ـ«عارفة ده صوت مين يا مه؟ الشيخ عبد الباسط.. طول عمرك تحبي الشيخ عبد الباسط.. بيفكرك برمضان»

ثم يعود ليجعلها تكرر الكلمات وراءه.. بالطبع هي لا تفعل، لكنه يستخلص من قسمات وجهها وطريقة تنفسها أنها تكرر:

ـ«قولي ورايا.. سبحان الله والحمدلله.. فاكرة لما كنت

باقولها غلط وانتي تخليني أقولها صح؟»

ثم يريها صورة على الهاتف المحمول.. هذا ما تستنتجه من كلامه، وتدرك كذلك أنه يضع الصورة أمام عينيها الذاهلتين:

-«دي صورة محمود ابني يوم ما اتولد.. صورته أهي معاكي.. محمود اتخرج يا امه.. فاكرة يوم التخرج؟»

كان الموقف خانقًا داميًا مع ما فيه من دلالات قاسية. لقد انقلبت الآية وصارت الأم التي تربي طفلها وتعلمه الكلام.. صارت هي الطفل الذي يحاول الابن تعليمه من جديد. لم يعد لها من سند واحد في هذا العالم سوى قلب هذا الابن الصغير.. ومن الواضح أنها أحسنت تربيته.

-«يا امه.. قولي ورايا: لا إله إلا الله.. محمد رسول الله»

المرأة لا ترد فيردد:

-«حرام اللي بتعمليه فيا ده. اتكلمي يا امه»

قدرت أنها على الأرجح لن تخرج من هذا المكان في وضع رأسي.. وعندما أخبرني الطبيب أن بوسعي الخروج غدًا، فقد حمدت الله لأنني سأهرب قبل أن تموت الأم.. سيكون مشهدًا أقسى من أن أتحمله لو حدث أمامي.

هنا ينهي البشر رحلتهم ليتم عرض فيلم حياتهم كاملاً أمامهم للمرة الأخيرة..

وعندما جاء المساء سمعت صوت سعال واهنًا من الفراش المجاور لي.. هذه المرة كان الصوت قادمًا من الفراش على يساري. لا أرى الوجه لكنه صوت امرأة مسنة تردد:

«حنان!.. إنتي فين يا بنتي؟ بقى كده؟ نفسي أشوفك مرة واحدة.. حنان!».

عروس للولد

مع زحام اللافتات التي تؤيد وتبايع في كل مكان، وهي تمثل مجرد تسجيل موقف في انتخابات محسومة أصلاً، تذكرت مقالاً قديمًا لي يعود لأيام مبارك. وما زال صالحًا جدًا مما يدل على أن الظروف لم تتغير أو أن المصري لم يتغير. لقد هبت عواصف يناير لتزلزل المجتمع المصري ومسلماته، ثم وهنت وتداعت وعاد كل شيء كما كان أو أسوأ.

أرجو منك أن تسمح لي بإعادة هذا المقال الذي بلغ عمره عشرة أعوام تقريبًا:

هذا إعلان غير مدفوع الأجر، أرجو من أولاد الحلال أن يأخذوه بجدية برغم أنه يبدو أقرب للمزاح.. أبحث للواد ابني عن عروس مناسبة.. لا أشترط الجمال ولا الأصل ولا الفصل ولا الأخلاق ولا الثقافة ولا التعليم ولا الدين ولا الطبع الهادئ ولا حسن التربية ولا السمعة الحسنة.. كل هذه الأشياء عرض زائل.... فقط لي شرط واحد هو أن يكون أبوها خطاطًا ممن يكتبون لافتات التأييد التي تعلق في الشوارع.. ربما كانت سن ابني صغيرة جدًا لهذا لا أمانع أن ألهف أنا العروس فلا أعتقد أن المدام ستمانع خاصة إذا عرفت أسبابي..

منذ أعوام فطنت إلى أن أكثر المهن رواجًا في عالمنا العربي هي تفصيل العلمين الأمريكي والإسرائيلي، ويكفي أن تشاهد أي نشرة أو مؤتمر شعبي لتدرك أن آلاف الأمتار من القماش تحرق كل عام.. ومعها يتدفق الذهب في جيوب ترزية الأعلام لو كانت هناك مهنة

كهذه..

بعد فترة بدأت أدرك أن حياتنا كمصريين لا تستقيم من دون لافتات ...لافتات مبايعة.. لافتات تأييد.. لافتات تأييد للمؤيدين.. لافتات شتيمة في غير المؤيدين الذين لا يؤيدون.. شعب يعيش حياته باللافتات هو شعب صمم على أن يجعل الخطاطين أثرياء.. لم تكد تنتهي هوجة الانتخابات التي أصر المصريون بذكائهم الفطري الحاد على أنها مبايعة، حتى بدأت هوجة مجلس الشعب..

هناك قصة طريفة عن مواطن بريطاني من ويلز كان يحتفظ بلافتة واحدة كتب عليها (يا للعار!).. وكان يرى أنها تصلح لكل المناسبات باعتبار أن هناك دائمًا عارًا ما لابد من الاحتجاج عليه، ويقال إنه وجد نفسه في مشكلة حينما خرجت البلدة ترحب بعمدتها الجديد!.. هذه هي المرة الأولى التي لم يجد فيها لافتة صالحة..

لو قررنا أن نقلد هذا العبقري لاكتفينا بلافتة عملاقة تقول: «نؤيد ونبايع الرئيس الموجود حاليًا للأبد».. وهكذا.. هناك دائمًا رئيس على حق دائمًا، وبهذا نوفر المليارات التي أنفقتها مصر على اللافتات..

تمشي وسط المدينة فتدمي اللافتات عينيك بقبحها وفظاظتها.. ضوضاء بصرية لا أول لها ولا آخر.. تدخل فنانو الجرافيك ليثبتوا أنهم استوعبوا عصر الكمبيوتر وأنهم يستطيعون ممارسة (النفاق الرقمي)، ليدخلوا مزجًا موفقًا بين صورة مبارك وبين الذي يؤيده لتوحي

الصورة بأنهما صديقان حميمان.. ترى في كل لافتة الرئيس ينظر للكاميرا باسمًا بينما يقف جواره الحاج (عبسميع)... لا تقرأ الاسم لكنك تعرف انه الحاج (عبسميع) دائمًا.. تاجر حدايد أو أسمنت أو أعلاف أو قطع غيار سيارات.. بشاربه الرفيع وصلعته ولغده ونظرة الأجلاف في عينيه.. لا تحتاج لأن تكون من مباحث المخدرات كي تعرف أن الحاج (عبسميع) يتاجر في البانجو.. لا تحتاج إلى أن تكون أخصائيًا اجتماعيًا كي تدرك أنه متزوج للمرة الثالثة من فتاة تصغره بعشرين سنة وأنه يتعاطى الفياجرا بإفراط، وأن عنده سيارة (مرشيدس) .. لا تحتاج إلى أن ترى باقي الصورة حتى تدرك أنه يمسك بسبحة في يده يعد عليها ملايينه..

هذا هو الوجه الذي يطالعك عند الصباح وعند المساء، كأنها ليست لافتة تأييد بل لافتة مصمد يعرض إنتاجه من لحمة الراس.. واحد من ألف وجه مماثل تناثرت في أرجاء مدينتك، يمزقون سلامك النفسي ويخدشون حياءك (هناك وجوه تخدش الحياء في حد ذاتها) وكلهم لفق صورته ليظهر جوار الرئيس كأنه من أخلص خلصائه.. وكل هذه الوجوه تصيح بحماس : نحن المنتفعون!!.. البلد بلد أبونا.. وبإذن واحد أحد حناكلها والعة..

هذا بلدهم وتلك مصالحهم وهم يدافعون عنها بكل مرتخص وغال.. نعم من القلب لزراعة البانجو.. نعم من

القلب للاختلاس وغش حديد التسليح.. نعم من القلب للأطعمة الفاسدة المسرطنة.. نعم من أجل تجريف الأراضي.. نعم.. نعم.. نعم ....

ترى في وجوههم رائحة التهريب والتأشيرات المضروبة والبانجو والمضاربة و.. و.. ترى في وجوههم كل ما أفقرك وعذبك وبهدل كرامتك وأهانك بين الدول وملأك بالخوف على مستقبل أطفالك وجعل أعزة أهلك أذلة.. ترى في وجوههم مستشفيات الحكومة معدومة الإمكانيات والمدارس الخربة والإعلام الهايف وصفر المونديال والسفير الإسرائيلي والمليارات التي يمرحون بها في الخارج..

حتى عندما تبتكر هذه الوجوه شعارات انتخابية فهي تأتي فضيحة في حد ذاتها.. (دوس دوس.. إحنا معاك من غير فلوس).. (يا جمال طمن أبوك.. البورسعيدية حاينتخبوك)..(لا لفار الجمالية اللي عاوز يبقى رئيس جمهورية).. هل هناك شعارات أكثر ابتذالاً وسخفًا؟... لو جئت بتشيكوف ونجيب محفوظ ودستويفسكي وديكنز واميل زولا، وأعددت لهم شايًا ثقيلاً مع اتنين كيلو كباب وطلبت منهم ابتكار شعار سوقي واحد فهل كان بوسعهم الوصول لشعارات كهذه؟

لكن كل هذا الإنفاق يتجه في النهاية إلى جيب واحد هو جيب الخطاط.. ولما كانت العضمة قد كبرت فإنني أستبعد أن تبلغ بي الحماسة درجة دخول مدرسة الخطوط (من أجل مستقبل باهر مشرق).. لهذا قررت

أن آخذ الثروة من المنبع وأطلب لابني يد بنت أي واحد من هؤلاء، فهم مستقبل هذا البلد كما كانوا ماضيه.. منذ كانت لافتات التأييد تنحت على الجرانيت ويوقع عليها الكاهن نخت آمون، إلى أن تصير لافتات التأييد مكتوبة بالليزر الذي يولده محرك بيولوجي ذو ذكاء صناعي..

أعرف أنني بهذا أرسم لابني مستقبلاً باهرًا؛ فكل المهن يمكن الاستغناء عنها في مصر ما عدا مهنة الخطاط ومصمم اللافتات.. هذا بالطبع ما لم ينضج المصريون يومًا ويكتفوا باقتناء لافتة واحدة كتب عليها (يا للعار!).

عن اهتبال الفرص

(اقتناص الفرص) أو (اغتنامها) مصطلح أخف على الأذن وأكثر رشاقة، لكن (اهتبال الفرص) له مذاق خاص يوحي بالاستهبال أو الاستغفال.

يمكن القول إن سيد الشماوي كان يشعر بذعر بالغ، وهذا الذعر يتزايد من لحظة لأخرى. يشبه الأمر ما يشعر به من قطع شريان فخذه، وهو يرقب في هلع بركة الدم التي ترتفع من حوله.. يريد فرصة يهتبلها.

سيد الشماوي مدرس تربية رياضية في مدرسة صغيرة آيلة للسقوط في قرية جوار (.....)، وهو في الأربعين من العمر وله زوجة ثرثارة شرسة وولدان وقحان. لم يكن صاحب إرث أو قطعة أرض ما في قرية، وبالطبع لم يكن هناك من يهتم بأخذ دروس خاصة في التربية الرياضية..

سيد الشماوي يدرك اليوم مدى تعقيد الحياة، خاصة مع الأسعار التي تتزايد يوميًا. هو لا يبالي بأن توجد ديمقراطية أو لا توجد. فليحكمك البغدادي أو كارل ماركس أو اللنبي.. فليمنعوا الصحافة أو يحرروها. ما يعنيه فقط هو أن يستطيع أن ينفق على بيته بين طعام وشراب وملبس وعلاج وكهرباء ودروس خصوصية. بعد ما اشترى وجبة من السمك المشوي واكتشف أن ثمنها ثمانون جنيهًا لسبب مجهول، وبعد ما ابتاع دجاجتين بمئة وعشرين جنيهًا، وبعد ما دفع خمسمائة جنيه في فاتورة الكهرباء وحدها، وبعد ما اكتشف ان الراتب لم يبق منه سوى جنيهين في يوم ٧ من الشهر، عندها فقط

أدرك أن الوضع خطير. هو غير قادر على إطعام أسرته، وبالتالي بدأت سلطته تهتز، بل أن أداءه الجسدي كرجل اهتز كثيرًا بسبب فقدان الثقة في نفسه، فليس من السهل أن تلعب دور الذكر مع امرأة أنت عاجز عن إطعامها..

كان يراقب الفضائيات ويفتح أذنيه جيدًا، وقد أدرك أن هناك طبقة متشابكة من المستفيدين الذين يمثل لهم هذا العهد فرصة العمر: النفوذ والثراء والتمكين. هؤلاء بالفعل صادقون في حماستهم للنظام ودفاعهم عنه، وهم يلوحون بالأعلام مرددين مصر هي أمي. هي بالفعل أمهم وأعطتهم كل شيء. لابد أن تحب منجم الذهب الذي تسرق منه يوميًا.

من بين هؤلاء رجال إعلام تملأ صورهم الفضائيات والإعلانات العملاقة في شوارع القاهرة، وهم يقبضون رواتب ذات ستة أصفار، ومنهم صحفيون يملكون كل شيء، ومنهم أشخاص كل موهبتهم بذاءة اللسان، وهناك حواة حقيقيون يعدون بعلاج المرضى بالكفتة وعلاج كل شيء بالمقدونس والبردقوش واستخراج الأسفلت من لحاء الشجر. الفساد قد تشعب وتنامى لدرجة تجعل أيام دجاج توفيق عبد الحي الفاسد أو مشتقات الدم التالفة ذكريات عذبة من الماضي الجميل، عندما كان الكل شرفاء. مصر تتصدر أي قائمة مؤذية في العالم اليوم، سواء نسبة التحرش أو الفشل الكلوي أو التهاب الكبد سي أو الفساد المالي.. الخ، بينما أي

قائمة تتعلق بسرعة النت أو الدخل الشهري أو السعادة أو جودة التعليم فأنت تجد مصر في نهايتها أو قبل نهايتها.

في البداية فكر الشمشاوي في أن يكون ثوريًا وأن يعلن غضبه على هذه القشرة الفاسدة، ثم أدرك أنه وحيد تمامًا ولا أحد يسانده في رأيه. هكذا توصل لاستنتاج عبقري قاله الغربيون منذ زمن: إن لم تستطع هزيمتهم فلتنضم لهم.

سوف يفسد إذن.. ولسوف يثير فساده دهشة الجميع، لأنه سيكون فسادًا من النوع الجبار.. سوف يكتشف الفاسدون أنهم كانوا يمزحون، بل هم أقرب لأطفال يعبثون.

هناك فكرة افتتاح بيت دعارة، لكنه لا يعرف أي نساء يصلحن، كما أنه يعرف أنه منحوس.. سوف يكون افتتاحه لبيت دعارة بداية تعفف الناس جميعًا وإخلاصهم لزوجاتهم. نفس الشيء ينطبق على تجارة المخدرات.. الطريقة المثلى لحل مشكلة المخدرات في المجتمع المصري هي أن يقوم هو – سيد الشمشاوي – بمزاولة تجارة المخدرات. كما أنه لا يعرف الحشيش حينما يراه.. قيل له إنه يشبه العجوة أو البراز الجاف، وهو لا يتخيل أن يحمل برازًا جافًا في جيبه ويقتطع منه بالمطواة، ثم أنه عاجز عن نطق كلمة (ترامادول) بشكل صحيح.

يعرف أن هناك بيزنس هائلاً من تجارة الآثار يمارسه

سادة المجتمع.. هناك غرف نوم كاملة تصدر للخارج وقد حشيت بآثار فرعونية ثمنها مليارات.. لكنه لا يعرف كيف يصل للآثار ولا من يبيعها ولا من يشتريها. لكي تتاجر في الآثار يجب أن تكون ثريًا ومن أعمدة المجتمع أصلاً.. المال والنفوذ يجلبان المال والنفوذ.

له صديق يكسب رزقه من شهادة الزور، حيث يجلس في مقهى امام المحكمة ليكلفه من يريد بشهادة الزور مقابل مال.. لكن أساطين هذه المهنة قد احتلوا مكانهم الراسخ منذ زمن.

لا توجد عهدة تحت يده يسرقها للأسف؛ سوى حصان الوثب المحطم وشبكة الكرة الطائرة الممزقة وثلاث كرات. لا توجد أسئلة امتحان يقوم ببيعها. هو غير مغر ولن يحقق نجاحًا لو باع جسده لهواة الشذوذ.

يعرف أنه لو كتب مقالات تنافق الحكومة فلسوف يبلى بلاء أفضل بكثير من البلهاء الذين يقرأ لهم، وهو بالتأكيد ذو حضور تلفزيوني أفضل من كل هؤلاء الذين يملئون الفضائيات.. سيفعل أفضل منهم بالتأكيد، ولسوف يكون أظرف وأوسع ثقافة، ولسوف ينافق النظام كما لم يفعل أحد من قبل.. ولسوف يضم الحكام إلى أولياء الله الصالحين. لن يقبض ملايين مثل هؤلاء المذيعين بل يكفيه أن يحصل على خمسين ألف جنيه شهريًا.

لكن كيف يصل لهذا؟

في كل يوم يزداد توترًا ورعبًا. أريد أن أسرق أي

شيء.. حرام.. أريد فرصة..

أريد أن أرتشي.. ان أمارس تلك النشوة التي يشعر بها الموظف عندما توضع رزمة النقود في درج مكتبه الأيسر.. وتلاعبه بالكلمات الشبيه بالشعر: «متضيعش وقتي.. أنا باكل».. البلهاء سيفهون أن الأكل هو النشاط الغذائي، بينما يدرك النبهاء أن الأكل يعني طلب رشوة..

يجب أن يسرق.. لو انتظر ستة أشهر أخرى فلن يجد مليمًا يسرقه. اللصوص يسرقون كل شيء وبسرعة جهنمية.. معجزة هذا البلد أنه يُسرق منذ عهد أحمس حتى اليوم وما زال واقفًا، لكن معدل امتصاص الدم يتسارع بشكل مذهل، ولسوف يحدث له ما يحدث للأبقار التي تمتص الوطاويط مصاصة الدم دمها ليلاً.. تظل البقرة تتصرف بشكل طبيعي عدة أيام، ثم فجأة تتداعى أقدامها وتسقط أرضًا ولا تنهض للأبد..

يجب أن يهتبل الفرصة..يجب أن يسرق.. يجب.. مشكلة وجودية هي أن تحاول جاهدًا أن تسرق أو ترتشي أو تبيع مبادئك لكن لا أحد يهتم.

كان مكتب مديرالمدرسة مفتوحًا والمدير ليس هناك. دخل وبحث حوله بحقد عن شيء يسرقه. كانت هناك ورقة من جريدة لف فيها ساندوتش طعمية وبعض المخلل. إفطار المدير الذي جلبه له عم شعبان ولم يأكله بعد. لم يتردد.. اهتبل الفرصة. أخذ الورقة بما فيها، وغادر المكتب متجهًا إلى غرفة المدرسين الخالية، حيث يمارس الفساد دون رقيب.

نشاطات جديدة

يمكن للنشاط السكاني أن يعطيك صورة كاملة عن اقتصاد مجتمع معين ومستقبله وتعليمه والتغيرات التي طرأت عليه.

بالنسبة للكسب، لاحظ أحد أصدقائي الأذكياء أن التجارات الناجحة في مصر هي التي تتعلق بفتحات الجسد! العين ليست فتحة جسد فلا تتوقع أن تصير ثريًا من القراءة أوالكتابة يا صاحبي. فتحة الأنف: لهذا تروج صناعة العطور ويكدس تجار الحشيش والكوكايين والسجائر الملايين. فتحة الشرج: السباكون وتجار الأدوات الصحية وجراحو البواسير. فتحة المهبل: ازدهار مهنة طب النساء والتوليد وطبعًا الدعارة وشبكات اللحم الأبيض. فتحة الإحليل: الثراء لأطباء المسالك البولية. فتحة الأذنين: هذا معناه الثراء لتجار الأغاني الملوثة وسادة موسيقى المهرجانات. ملوك الفوضى السمعية الرهيبة التي تحاصرنا. فتحة الفم: لا شك أن المطاعم تربح جيدًا جدًا. الناس لن تتوقف عن الأكل أبدًا.

لا شك أن هذا الكلام لا يخلو من الدقة والملاحظة الجيدة.

مع التغيرات الاجتماعية المتوالية في المجتمع المصري خلال ثلاثين أو أربعين سنة، يمكنك أن ترى التغيرات بوضوح، فالنشاط السكاني يتغير بلا شك.

عندما تلاحظ الشارع فلسوف تدرك أن هناك ازدهارًا غير مسبوق للمطاعم وعربات الفول. لا شك أن الفول

اكتسب مجدًا وأهمية عظيمين وسط هذا الغلاء كله، والمصري عمومًا يمارس الإفطار بإخلاص وحماسة.. لعلها المتعة الوحيدة الباقية له، وهو يغتنمها جيدًا جدًا وتكون أنشط فترات اليوم. في حنكة وخبرة ينتقي البصل الأخضر ثم يتخير رغيفين من الخبز يحكهما ببعض وبصدره لتتساقط الردة ويهز رأسه في نشوة وهو يستند على الخشب الأخضر لعربة الفول. هنا تتساءل: أين كان الناس يفطرون في الماضي؟

كانت هناك باحثة أمريكية في الجامعة الأمريكية كتبت دراسة قصيرة عن مجمع التحرير، فقالت إن الشخص الوحيد الذي يعمل بنشاط وجدية كأنه نحلة في المجمع كله، هو عامل البوفيه. هذا هو الشخص الوحيد الذي لا يمزح.

الساعة تقترب من العاشرة صباحًا أو تجاوزتها.. الآن حان موعد المقهى. المقهي نشاط سكاني آخر ازدهر بقوة في الفترة الأخيرة خاصة مع تفاقم البطالة. هناك مقاه في كل مكان والمقاهي الأرقى نوعًا سمت نفسها كافتيريات.

هناك يجلس الناس ويتبادلون السباب بينما تصل الشيشة. الشيشة ازدهرت جدًا مع ارتفاع سعر السجائر. حجر أو حجران في الصباح يكفيان لتعمير الرأس حتى المساء والرائحة عطرة جميلة، ولا شيء مثلها يعطي الانطباع بالمعلمة والحنكة خاصة عندما تضيق عينيك كثعلب حالم وأنت تخرج الدخان، ثم تخرج المحمول

لتستعرض شاشته. قرعات حجارة الدومينو والتلفزيون مفتوح لا يتابعه أحد.. غالبًا هو أحمد موسى على الشاشة، والسبب أن صاحب المكان لا يريد ملاحقات أمنية.. إنه يعلق إعلانًا متحركًا أنه يصدق الحكومة في كل شيء. فيما مضى كان توفيق عكاشة محببًا جدًا في المقاهي. بالطبع هناك أغاني المهرجانات التي يقدمها شباب (صيع) يحملون ندوب المطاوي على الوجوه، ثم المباريات التي تمثل النشاط السكاني الأهم والدخل الأعلى لصاحب المقهى لكن موعدها ليلي.

بعد هذا نرى نشاطًا سكانيًا جديدًا: الفتى الوسيم الذي يمر على موائد القهوة حاملاً مجموعة من الجوارب أو العطور أو الأقلام. سوف تعرف بسهولة أنه حاصل على بكالوريوس في كلية الآداب ولم يجد عملاً. عليه أن يتحمل سخف الجالسين بين لا مبال أو كريه أو وغد يريد التسلية لا أكثر. نشاط سكاني آخر هو المرأة رثة الثياب التي تحمل طفلاً قذرًا وتمر على الموائد طالبة حسنة من الجالسين، حتى يطردها القهوجي في غلظة. التسول يزدهر بلا شك. لكنك ستدرك بسهولة أن المرأة تحقق أضعاف ما يحققه الشاب خريج الكلية.

في كل ركن من المدينة ترى محلاً صغيرًا فيه فتاة شاحبة، هو مكتب اتصالات أو لوازم المحمول.. هذا نشاط سكاني جديد مزدهر، وجزء منه يعكس حالة الفراغ العاتية التي يمر بها المجتمع. حيث تتبدد الجنيهات في كلام على الهواء غالبًا.

نأتي بعد هذا لنشاط سكاني مزدهر آخر؛ هو نشاط بيع مرشحات (فلاتر) الماء. هذا فلتر خمس مراحل وهذا سبع مراحل.. هذا نشاط رائع جدًا لأن الجميع يعرف حالة ماء الصنبور.. افتح الصنبور وتأمل الماء، ولو استطعت أن تميزه من الكولا في معظم الأحوال فأنت رجل محظوظ.. هكذا يصير فلتر الماء مسألة حياة أو موت.. فشل كلوي أو لا فشل كلوي.. تيفود أو لا تيفود ...

تركب سيارة تاكسي فتقابل نوعًا آخر من النشاط السكاني: الشاب الذي يقود التاكسي. سوف يبدأ الكلام عن (العفشة التالفة) التي يرفض صاحب التاكسي أن يستبدلها.. صاحب التاكسي لديه خمس سيارات لكنه يعطي كل سائق خمسين جنيهًا في اليوم. لهذا يقرر الشاب أن ينتقم بأن يتلف السيارة. يبتلع كل المطبات أثناء المشي ويأخذ كل المنحنيات دون ضغط الدبرياج لتتلف الكبالن.. وتشعر أنه يفتش عن الخدوش والتلفيات. في الوقت نفسه يشكو صاحب السيارة من الشباب الذين لا قلب لديهم، والذين يتلفون السيارة لأنها ليست ملكًا لهم. وقد يقوم الواحد منهم بعدة سفريات من الباطن دون أن يقول شيئًا بل يضع المال في جيبه، دعك من أنه لا يصلح السيارة ولا يغسلها أبدًا.

سيارات التاكسي تنقل الطلبة الذاهبين والعائدين من نشاط سكاني جديد آخر هو الدروس الخصوصية، وهو

نشاط لا قيمة له عامة ما دام الطلبة سيعملون سائقي تاكسي آخرين، والمحظوظون منهم سيعطون المزيد من الدروس الخصوصية.

هكذا تقضي اليوم في استكشاف النشاطات السكانية الجديدة، فتدرك أن البطالة والغلاء يلعبان دورًا مهمًا في تشكيل النشاط السكاني اليوم. هناك بالتأكيد طريقة لوضع قطع الشطرنج في مكانها والاستفادة من كل شخص حيث يكون مفيدًا. لا تقنعني أن الشاب الذي يبيع الأقلام في المقهى يعمل فعلاً، أو أنه يحقق أي كسب من عمله. على العموم حاول أن تنتهي من شطيرة الفول وحجر الشيشة سريعًا لتفكر معي.

عن عدم التوفيق

يعتمد الطبيب بلا شك على قدر كبير من التوفيق في التشخيص والعلاج، فإذا أجاد العملين ظل هناك قدر من التوفيق يحتاج له كي... كي ماذا؟... لا أدري بالضبط. هناك أطباء يرون حالة مُلغزة بالغة التعقيد فيكتبون بعض أقراص البانادول، فيُشفى المريض شفاء تامًا ولا يُصاب بأي أمراض لمدة عشرة أعوام.

لدي عشرات القصص من هذا الطراز، وكلها مسلّ جدير بأن يحكى، لكني سأكتفي بقصة واحدة حدثت لي منذ عشرين عامًا.

قصة واحدة عن مهندس من أقاربنا. شاب نحيل بالغ التهذيب خجول كالعذارى. استدعوني لرؤيته ذات ليلة ممطرة، فذهبت. كان يعاني ألمًا متزايدًا في بطنه مع قيئ شديد. لم تكن هناك علامات أخرى سوى بعض الإمساك، فكتبت له حقنة «ميتاكلوبراميد» وريدية مع دواء مغص وطلبت أن يخبروني هاتفيًا بما يستجد، وانصرفت وسط عبارات الشكر والعرفان.

في البيت جلست أجتر براعتي وشهامتي وكم أنا رائع، على أن الهاتف دق بإلحاح في الثانية صباحًا... وعلى طريقة الأفلام المصرية سمعت قريبتي تصرخ:

«إنه... لقد أخذ الحقنة ثم سقط أرضًا... إنه... آه ه ه ه!»

ثم وضعت السماعة على صوت الصرخة. لقد مات على الأرجح.

لا أعرف كيف ولا بأي سرعة ارتديت ثيابي، ولا كيف

نزلت لأتوسل سيارتي الغافية في البرد والمطر أن تقبل الدوران. كانت سيارة ١٢٨ عجوزًا مرهقة ترى أن من أبسط حقوقها أن تنام ليلاً وتتقاضى معاش السادات. وانطلقت في شوارع البلدة الخالية حتى وصلت إلى بيت أقاربنا.

كان الموقف أشبه بلوحات الاحتضار الباروكية، والإضاءة خافتة بينما يلتفون حول المهندس الشاب باكين، وعلى مقعد قريب رأيت (أبلة تريزا)، وهي ممرضة مسنة تعمل في مستشفانا، وتبين أنها جارة أقاربي. كانت غارقة في العرق والتوتر وفهمت أنها هي التي أعطت المهندس حقنة الميتاكلوبراميد. قبل أن أتكلم قالت لي بلهجة متهمة:

«قلت لهم إن الميتاكلوبراميد لا يُحقن في الوريد وإنما في العضل، لكنهم قالوا إنك من طلبت هذا! عندما أعطيته الحقنة سقط أرضًا على الفور.»

ومصمصت بشفتيها. فكدت أجن غيظًا... الميتاكلوبراميد يُعطى في الوريد والعضل، لكن المرأة جعلت الأمر يبدو كخطأ آخر من أخطاء الأطباء الحمقى الجهلة إياهم. وفي عيون الأقارب رأيت نظرة تقول: كيف عرفت الممرضة حقيقة كهذه بينما تجهلها أنت؟

بحثت عن الأمبول الذي حقنته ووضعته تحت أنفها لترى كلمة IV (في الوريد) المحفورة. لكنها هزت رأسها في عدم اقتناع: «غلط».

تفحصت الفتى... لم تكن الحقنة هي السبب، ولكنه في

حالة ضعف عام ووهن. لقد ازدادت حاله سوءًا بالفعل منذ رأيته هذا المساء. تفحصته بعناية فوجدت أن بطنه منتفخ لا يتحمل لمسة من أناملي، وعندما سألته عن التبرز نفى أنه فعلها منذ يومين، والقيء مستمر مع هبوط في ضغط الدم... لم يبق شيء لإقناع أي حمار أن هذا انسداد معوي... المريض يوشك على الصراخ بأنه مصاب بانسداد معوي.

على الفور طلبت أن يساعدوني لحمله للسيارة، وسرعان ما كنا نطوي الطريق طيًا إلى مستشفى طنطا الجامعي، حيث أجريت له فيلمًا استكشافيًا. النتيجة كانت مريبة فعلاً مما يسميه الأطباء (مستويات أفقية متعددة للسائل). نحن في وضع خطر فعلاً.

اتصلت بمدرس جراحة أعرفه فجاءني بصعوبة في ساعة كهذه ومع الليل الماطر. تفحص المريض ورأى الأشعة ثم أعلن في ثقة: «لا يوجد انسداد معوي».

«وما تفسير هذا كله؟»

بدا عليه سمت من يخاطب طفلاً غريرًا، وقال وهو ينتحي بي جانبًا:

«ثمة مشكلة دائمة لدى أطباء الأمراض الباطنية هي أنهم لا يملكون حاسة جراحية... انظر للمريض جيدًا... هل يبدو لك كمريض انسداد معوي؟»

«نعم»..... صاح في عصبية وهو يلوح بيده: «ما أريد قوله شيء واحد... هذا ليس مريض انسداد معوي... انتهى الأمر!».

وانصرف غاضبًا من استدعائه ليلاً.

الآن علي أن أنقل المريض وأهله عائدين لدارهم بسيارتي، وهم يرمقونني في صمت... لقد برهنت مرتين على جهلي وحماقتي: مرة عندما طلبت حقن المريض وريديًا بالميتاكلوبراميد وكاد يهلك... والمرة الثانية، عندما افترضت أنه انسداد معوي وأثرت رعب الجميع. أخيرًا جاء الجراح المتمكن الواثق الذي تعلم جيدًا، ليعيد البسمة للوجوه.

كانوا فاترين جدًا في وداعي...

وعدت لبيتي تحت المطر شاعرًا بالخزي والعار... الحق أنها كانت ليلة من عدم التوفيق، لكني حاولت جهدي على كل حال.

مرت أيام ولم أسمع شيئًا عن هؤلاء القوم...

إلى أن قابلت المهندس يمشي مع زوجته في الشارع وقد بدا أكثر نحولاً لكنه بصحة جيدة. هرعت نحوه أحييه وسألته عن حاله... قال لي: «لقد كنت في المستشفى... كانت حالة انسداد معوي تحت حاد نجمت عن درن في الجهاز الهضمي... لابد أن العدوى أصابتني من اللبن».

«انسداد معوي؟»....

«نعم... وكانت جراحة عسيرة حقًا... الحقيقة أنكم فشلتم في التشخيص في تلك الليلة وكدت أدفع حياتي ثمنًا لذلك».

قلت بصوت مبحوح: «لكني قلت إنها ....».

لحسن الحظ أن جراحًا بارعًا يسكن بجوارنا رآني وطلب مني دخول المستشفى حالاً... ثم حياني في فتور وانصرف مع زوجته... لقد ذابت الذكرى وسط الضباب فلم يعد أحد يذكر أنني قلت إنه انسداد معوي... ولابد أنني صرت قصة يتسلون بها كلما حكوا عن أخطاء الأطباء.

هكذا يمكنك أن ترى أن أخطائي كانت عديدة... أعطيت الميتاكلوبراميد في الوريد فكاد يقتل المريض (مع أن الشركة المنتجة نفسها أوصت بأن يعطى في الوريد)، وقلت إنه انسداد معوي وهذا ما نفاه مدرس الجراحة العبقري... ثم لم أشخص الانسداد المعوي فكاد المريض يموت لولا تدخل الجراح البارع.

نعم هي مهنة صعبة كما قلت لك... والمرضى غالبًا بلا ذاكرة، لكن التوفيق هو أهم شيء وهو الذي يحمي الأطباء من الموت جوعًا.

عن الذكاءات!

لي رأي سلبي – لعله أقرب إلى التعصب وضيق الأفق - في التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية وكل هذه المصطلحات، وتفسير هذا يطول على كل حال وقد كتبت عنه عدة مقالات فيما سبق. وإن المرء ليعاود اليوم البحث عن الذين اهتموا بدراسة هذه المجالات منذ عشرة أعوام ونيف، فيجد أن من نجحوا فعلاً منهم هم أولئك الذين قرروا أن ينقلوا المجالات للآخرين. أي أن الطريقة المثلى للاستفادة هي أن تصير أنت نفسك مدرسًا ومدربًا. تدريب المدربين TOT هو سبيل النجاح الوحيد هنا.

لا أخلط هنا بين حبي الشديد لد.شريف عرفه كصديق عزيزعتيد، وبين جديته الصارمة في إجادة ما يدرسه أو يمارسه؛ سواء كان فن الكاريكاتور أو مجالات علم النفس. بصراحة لم أجرّب أن يحشو لي ضرسًا – تعرف أنه طبيب أسنان - ولن أجرؤ أن أجرّب، لكني بالتأكيد أعرف مقدار الجهد الذي يبذله في كتبه لتخرج من تربة أكاديمية مدققة تعرف ما تتكلم عنه، وهو حاصل على ماجستير إدارة أعمال وماجستير علم النفس الإيجابي التطبيقي من جامعة إيست لندن، وهو ماجستير حقيقي تابعت مراحل ولادته الشاقة، ولم يحصل عليه من جوهانسبرج بالتأكيد!

برغم أننا قريبون جدًا من الحدود التي أعتبرها محرمة مضللة – حدود التنمية البشرية – فإننا مطمئنون لأن معنا مرشدًا أمينًا يقود خطانا.

استجابة لمقال الأسبوع الماضي الذي تحدثت فيه عن أنواع الذكاء المتعددة، والتفرقة بين الذكاء والثقافة والنصاحة، كتب لي د.شريف عرفه:

«هناك فعلا توجهات لعلماء النفس للتوسع في تعريف الذكاء ليتجاوز فهمنا التقليدي له؛ فمثلاً طرح هوارد جاردنر من جامعة هارفاد مفهوم الذكاءات المتعددة، موضحا أن الذكاء ليس واحدًا عند كل الناس بل له تجلياته متعددة، فهناك الذكاء الاجتماعي (فهم الناس والتعامل معهم) والذكاء الرقمي المنطقي (التعامل مع المعادلات والأرقام) والذكاء الموسيقي (عند الملحنين و المغنين) والذكاء اللغوي (مثل الشعراء والأدباء) والذكاء الداخلي (فهم والتعامل مع عالمنا الداخلي من مشاعر وأفكار) والذكاء البصري الفراغي (مثل الفنانين التشكيليين والمصممين ومهندسي الديكور...) والذكاء البدني (كما عند الرياضيين والراقصين ولاعبي الأكروبات..) وهو تقسيم لا يكتفي بهذا بل يفتح الباب لأنواع أخرى للذكاء، كالذكاء الوجودي والذكاء الروحي والذكاء في فهم الطبيعة... الخ»

«و أيضًا، طرح بيتر سالوفاي (رئيس جامعة ييل الحالي) مفهوم الذكاء العاطفي أيضا (وهو مزيج من الذكاء الاجتماعي و الداخلي في التقسيم السابق) و هو الذكاء الذي اصبح مشهورا لدى القارئ العادي بسبب كتاب دانييل جولمان الشهير عنه. و هناك دراسات عديدة توضح أهمية هذا الذكاء العاطفي في مجالات

عديدة كالنجاح الدراسي و الأكاديمي. »

«باختصار: مهما كنت ذكيًا، فان هناك من هو أذكى منك في نوع آخر من الذكاء».

في كتابه الأخير خصص فصلاً كاملاً للكلام عن الذكاء العاطفي، لكني لا أعرف الاسم النهائي الذي اختاره لهذا الكتاب.

تذكرت هنا أنه كلمني منذ عام تقريبًا عن نظرية جاردنر هذه، لكني نسيت كالعادة. على كل حال أذكر لك بسرعة ملخص عدة مواقع إنترنت تتكلم عن الرجل ونظرياته. هو أمريكي ولد عام ١٩٣٤ وهو أستاذ الإدراك والتعليم للدراسات العليا في جامعة هارفارد. ملامح وجهه لا توحي بالذكاء، بل إنه مصاب بعمى ألوان خطير ومشكلة في تمييز الوجوه، لكنه نال أوسمة وشهادات فخرية من نحو ٢٦ جامعة، وله كتب مهمة تربو على العشرين أشهرها (إطارات العقول -١٩٨٣).

الحقيقة أن هذا الكتاب أحدث زلزالاً في فهم الذكاء البشري. فالذكاء أنواع مختلفة، ولا يوجد ذكاء مطلق أو غباء مطلق. تعريف الذكاء التقليدي هو القدرة على التكيف السريع مع وضع مستجد، ولكن جاردنر لاحظ أولئك الموهوبين الذين لا يحصلون في اختبار الذكاء إلا على درجات متوسطة أو دونها، مما جعله يعتقد أن الذكاء مؤلف من عناصر عدة متراكبة، ورفض اختبارات الذكاء التقليدية التي تضعك تحت رقم IQ. يجب أن نعترف بتعدد الذكاء الإنساني فالذكاء لدى البحارة مثلاً

هو البراعة في الملاحة، وكذلك بالنسبة للفلاحين والصيادين والمهندسين.. الخ. هناك ذكاء لا يعتمد وحده على المهارات اللغوية أو الرياضيات والمنطق، التي طالما مجدتها اختبارات الـ IQ. وصنف جاردنر الذكاء إلى ثمانية أقسام (أعتقد أنك يجب ان تنتحر لو لم تجد نفسك في أي قائمة):

أ ـ الذكاء اللغوي: وهو مفهوم من اسمه. والأذكياء من هذا النمط يحبون القراءة والكتابة. منهم الشعراء والأدباء والممثلين.

ب ـ الذكاء المنطقي ـ الرياضي: موهبة حل المشاكل، وطرح أسئلة بشكل منطقي. هذا نوع من الذكاء تجده لدى العلماء والمهتمين بالرياضيات وخبراء الاقتصاد في كل مكان عدا مصر طبعًا.

ج ـ الذكاء التفاعلي: القدرة على فهم الآخرين، والتفاعل معهم. يبدو واضحًا لدى المدرسين والسياسيين – الجيدين منهم - والزعماء الدينيين.

د ـ الذكاء الذاتي: فهم الشخص لذاته وقدرته على العمل منفردًا. وهو بارز لدى الفلاسفة ومعظم من يفضلون العمل وحيدين. المنطوون على أنفسهم ليسوا بالضرورة مالكين لهذا الذكاء.

هـ ـ الذكاء الجسم ـ الحركي: يمكنك بسهولة أن تدرك أن هذا الذكاء واضح عند الرياضيين والراقصين والجراحين. من الصعب ان تتخيل أن نوعًا واحدًا من الذكاء يجمع بين لوسي ومجدي يعقوب والحضري،

لكنها الحقيقة.

و ـ الذكاء الموسيقي: العنوان يفسر نفسه. قل محمد عبد الوهاب لينتهي الأمر. الأذن الموسيقية موجودة لدى الشعراء والموسيقيين والمطربين.

ز ـ الذكاء البصري ـ الفضائي: يمكنه عمل علاقات فراغية تخيلية.. يحب الخرائط وألعاب المتاهات. يتميز في هذا المحال النحاتون والمهندسون المعماريون. إنه نوع الذكاء الذي نعرف يقينًا أنه غير موجود لدى من نحت تمثال كليوباترا أو رجل قطونيل.

ح ـ الذكاء الطبيعي: يميل صاحب هذا الذكاء لدراسة الكائنات الحية وتصنيفها. لابد أن داروين ولينيوس كانا يملكان قسطًا هائلاً منه.

هل وجدت نفسك في هذه القائمة؟ لا تقلق. فلربما كنت تملك نوع الذكاء الغامض الذي أسميه (نصاحة)، ,اعتقد أنه يندرج تحت الذكاء الاجتماعي أو التفاعلي.

يمكن بسهولة أن تدرك تأثير هذه النظرية على التعليم. ليس الطفل الذكي بالضرورة هو من يعرف تاريخ تكوين عصبة الأمم أو يضرب ١٣٥٦٧ في ٨٨..

هنا يستطيع كل طفل أن يحقق ذاته وأن يكشف عن نوع الذكاء المناسب له. كان مدرسو اللغة العربية والإنجليزية يعتبرونني عبقريًا، بينما آمن مدرسو الرياضيات والفيزياء أنني معتوه أو متخلف عقليًا، واعتقد مدرس الرياضة البدنية أنني مصاب بجلطة في المخيخ أو شلل نصفي. إن تصميم المناهج طبقًا لنظرية

جاردنر هو تحد شديد الصعوبة، لكنه يحول المجتمع إلى حشد من الأذكياء كل واحد في مجاله، فلا يُدفن مهندس أو جراح أو رياضي أو رسام دون أن نفجر قدراته تلك.

هناك كلام كثير عن دانييل جولمان والذكاء العاطفي، لكن المقال قد طال.. لربما أعرضه في مقال آخر إن شاء الله.

تجربة كواترماس الرهيبة

لا تخلط بين كواترماس الذي نتكلم عنه هنا وكواترماس العالم الذي تقابله في أفلام رعب شركة هامر الشهيرة، والذي أجرى بدوره عددًا هائلاً من التجارب العلمية المخيفة.

د. كواترماس الذي نتكلم عنه عالم يعمل في مختبر غامض في ألاسكا، كان يقوم بعمل تجارب غريبة على خنازير غينيا. طبعًا نذكرك أن خنازير غينيا ليست خنازير ولم تأت من غينيا، بل هي كائنات وديعة أقرب للفئران، وذنبها الوحيد هو أن جهازها المناعي يشبه جهاز الإنسان. لكن ضعف الميزانية اضطر العالم إلى اللجوء للأرانب.

كواترماس – كالعادة - عالم مجنون له شعر أشعث ونظرات مخبولة من وراء زجاج عويناته، لكنه عبقري ولا يوجد تعارض هنا.

تجربة كواترماس ١:

لاحظ كواترماس أن مجتمع الأرانب في المختبر يمكن تقسيمه إلى أرانب ضعيفة مستسلمة تميل للعمل الشاق، وأرانب قوية تهوى السيطرة والتحكم، وهناك أرانب من نوع ثالث لا جدوى منها على الإطلاق، ولكنها تقوم بدور غريب في تضليل الأنواع الأخرى وتنويمها. وقد لاحظ أن أرانب النوع الثالث هذه تأكل كميات هائلة من الطعام وتحظى بحياة رغدة مترفة، وهي ذات ميول استعراضية واضحة لدرجة أنها تخرج رءوسها من بين

قضبان القفص طيلة الوقت.

لاحظ كواترماس أن أرانب المجموعة الثالثة الاستعراضية شبه منيعة. عرضها لدرجات حرارة كفيلة بسلق اللحم، وعرضها لصدمات كهربية قوية، وحقنها في بطنها ببكتريا الدرن، بل إن المختبر احترق ذات مرة، وعندما انقشع الدخان اكتشف أن هذه الأرانب لم تمت. كتب في مذكراته أن أرانب النوع الثالث لا تموت أبدًا مهما حدث لها. إنها باقية دائمًا ومن حقائق الكون.

تجربة كواترماس ٢:

جرب كواترماس دراسة تأثير الضغط العصبي والجسدي على أرانبه، فقام بزيادة حرارة الغرفة لدرجة ٣٩ مئوية كما قام بتقليل كمية الغذاء المقدمة لها. في المرة الأولى كان هياج الحيوانات عنيفًا وقد وجهت له مجموعة عضات شرسة، مما اضطره لزيادة جرعات الغذاء من جديد لأنه صار خائفًا من دخول المختبر فعلاً، ثم أنه بدأ في فصل الأرانب التي بدأت بالشغب في المرات السابقة. قام بإطعامها للقطط.

بعد هذا جرب كواترماس أن يقلل جرعات الغذاء بالتدريج فلم يحدث شيء. قلل كميات الماء جدًا، فظلت الأرانب هادئة.. قرر أن يضرب الضربة الكبرى وأوقف الغذاء والماء تقريبًا، فلاحظ أنها تتذمر لكنها ظلت خائفة من أجل أقل القليل الذي تحصل عليه، فهي تخشى أن تفقد هذه الوجبة المضمونة بدورها، كما أنها

تتذكر مشهد الأرانب التي افترستها القطط فتقرر الصمت.

أثار هذا فضول كواترماس جدًا، وقد قرر أن يدرس درجة الاستفزاز التي يمكن أن تبلغ بالأرانب مرحلة العض. ولتكونن ورقة علمية جبارة. وبدأ يبتكر في كل يوم اختبارًا آخر. قام بتضييق الأقفاص بحيث صارت الأرانب تنام وتتبرز وتتبول فوق بعضها. كما أنه في كل يوم كان يأخذ مجموعة منها ليصعقها بالكهرباء. لكن النتيجة ظلت كما هي: الحياة المعذبة أفضل من لا حياة على الإطلاق. أو كما يقول صلاح جاهين شاعرنا: محلى الحياة ولو على صورة نبات.

كانت هناك أرانب تأخذ قطرات دواء مضاد للإسهال أو فطريات الأذن، فأوقف هذه القطرات.. لم يحدث شيء. أما الأرانب الوليدة فقد أوقف تقديم اللبن لها لفترة لا بأس بها. أثار هذا دهشته فعلاً. بل إن أحد الأرانب عضه ذات مرة فانقضت الأرانب عليه لتمزقه بأسنانها تمزيقًا.

قرر كواترماس أن الأرانب تعيش بقاعدة (الحياة المعذبة أفضل من لا حياة على الإطلاق). لهذا قرر أن يضعها في خطر دائم وبدأ يترك بعض الأقفاص مفتوحة, وسمح بدخول القطط وحيوان ابن عرس إلى المختبر، وهكذا كان الليل كله عملية التهام طويلة على صوت استغاثة الأرانب.. القطط لا تعرف الفارق الدقيق بين الأرانب والفئران، الذي يجعل الأولى كائنات رقيقة لطيفة والثانية كائنات مقرفة مرعبة. في الصباح كنت

ترى أشلاء الأرانب والدم في كل مكان. لكن لم يزدد سلوك الأرانب عدوانية.

تجربة كواترماس ٣:

قرر كواترماس أن يستغل نقطة الحقد الطبقي. الأرانب المسيطرة قام بوضعها في أقفاص واسعة فاخرة وقام بزيادة كميات الطعام لها.. الكثير من الخبز والبرسيم والنخالة مع ماء نقي ممتاز. كلما قلل كميات الطعام للأرانب التعسة زاد الكميات للأرانب القوية. ثم وضع لها وسائل ترفيه متعددة وأكثر من أرجوحة، برغم أن الأرانب لا تحب اللعب مثل فأر الـهمستر hamster.

ذات مرة حاول أرنبان من الأرانب المستسلمة عضه وهو يفتح القفص، وسرعان ما تكالبت عليهما الأرانب من النوع الثالث.. الأرانب ذات الميول الاستعراضية إياها. قامت بعض الأرنبين وتمزيق ذيليهما. كان التصرف عنيفًا لدرجة أنه اضطر لأن يبعد الأرنبين التعسين في قفص منفرد، ثم قرر أن يعطيهما لزوجته كي تطبخهما للعشاء، فهما لن يصلحا لأي تجربة بعد ذلك.

تجربة كواترماس ٤:

قرر كواترماس أن يجرب إغراق بعض الأقفاص في الماء ليرى رعب وانتظار الأرانب التي لم يأت دورها... لربما أدى هذا إلى تحريكها.

المشكلة هي أنه كان يرسم منحنيات بيانية ويملأ الكثير من الجداول، وكان ينتظر في لهفة نقطة الانفجار ليكتب ورقة علمية مثيرة في علم النفس السلوكي، لكن الوضع ظل خاملاً جامدًا وبدا واضحًا أنه لن يحدث شيء..

اقترح مساعده أن يعود للعمل مع خنازير غينيا فهي أكثر حيوية وأحرّ دمًا، لكن كواترماس لم يتكلم.. ظل يرمق أقفاص الأرانب في غيظ، ثم مزق أوراقه وشعره وصاح بما معناه بالعامية المصرية:

ـ «ربنا ينتقم منكم!.. كفرتوني!.. انتم مش كائنات حية!»

ثم خرجت الرغاوي من فمه والدم من أنفه وسقط على الأرض وأصيب بالفالج. ويبدو أن هذه كانت طريقة الأرانب العبقرية في الانتقام من د. كواترماس الرهيب.

تليفونيس من جديد

في السبعينيات كانت هناك مشاكل رهيبة في تداخل خطوط الهاتف في مصر، حيث لا يمكن أن تجري مكالمة دون أن يسمعها ٥٦ شخصًا؛ ولهذا التقط الساخر العبقري أحمد رجب الخط وكتب مقالاً جميلاً عن الفيلسوف الذي أنشأ نادي تليفونيس، حيث الناس كلها تتكلم في فراغ مفتوح وتسمع بعضها. وكلما حاول أحد الناس أن يتكلم سمع نشيدًا يقول:

«يا طيور انشدي ورددي.. أهلاً وسهلاً بالأخ المتوددي

« مرحبًا بك يا سيدي.. فتودد واجعل بساطك أحمدي»

هذه دعوة للتودد من الفظاظة أن ترفضها.

فإذا أصيب أحد الناس بمرض راح كل من على الخط يصرخ: «إسعاف! إسعاف!»، حتى يسمعهم موظف الإسعاف بشكل ما. وهناك الرجل الذي يغازل حبيبته فيتدخل أحدهم في عصبية: «انت يا أستاذ ياللي بتحب.. موعد الندوة الثقافية اتأخر وانت معطلنا». هنا يتدخل شاب آخر: «عيب كده.. اتفضل يا أستاذ حب براحتك».

المقال كفيل بأن يقتلك من الضحك، لكن هذا كان بالفعل الحال وقتها، حيث كان الاتصال عسيرًا وتركيب خط هاتف مستحيلاً. ما زلت مصرًا على أن مبارك قدم الكثير في أعوامه العشرة الأولى، ومن بينها النهوض بالاتصالات والمرافق، وهذا بالطبع لا ينفي أنني ضده بالكامل في النصف الثاني من فترة حكمه. لقد طال

عهده ليدمر بنفسه ما صنعه في البداية. هذا ليس موضوعنا على كل حال............

تذكرت نادي تليفونيس من جديد، عندما قال لي أحد أصدقائي إنه قام بالتسجيل في أحد المواقع الاجتماعية، ولم يكتب اسمه أو سنه أو أي معلومات عنه. لكنه أرسل رقم هاتفه ليتلقى كود تنشيط العضوية. فوجئ عند الدخول ان الموقع يعرض عليه قائمة اسماء (قد يعرفها)، منها جيران له في نفس البناية ودفعته في الكلية وزوجات أصدقائه! بل إن معظم الاسماء المقترحة من نفس دينه كأن الموقع خمن ديانته. أصيب بذعر، وإن كان التفسير الوحيد لديه هو أن الموقع قام بالاستيلاء على الاسماء المسجلة على هاتفه المحمول كلها، كما يفعل برنامج Trucaller بالضبط..

معنى هذا – يقول – إنه لا يوجد وهم اسمه الخصوصية على الإطلاق.. أنت مكشوف بالكامل.. هناك على شبكة النت نادي تليفونيس رقمي حقيقي.

تذكرت بالطبع قصة سنودن الذي قام بكشف ألعاب التنصت التي تمارسها المخابرات الأمريكية. رأينا في الفيلم كيف أن المخابرات قادرة على تحويل اللاب توب الذي تملكه فتاة إلى كاميرا تتجسس عليها حتى وهي تنزع ثيابها، وكيف صار سنودن نفسه غير قادر على النوم إلا إذا غطى شاشة الكمبيوتر، ولا يتكلم أمام زواره إلا بعد أن يضع هواتفهم المحمولة في الميكرو

ويف أولاً.

هذه الفكرة قديمة جدًا، وتتعلق بمفهوم (الأخ الأكبر يراقبك) الذي عرفناه من رواية ١٩٨٤، وحيث تراقبك شاشات التلفزيون في بيتك أربعًا وعشرين ساعة، وعليك أن تتحاشى ان يقبض عليك بتهمة التفكير..

صديق آخر لي قال إنه لاحظ أنه صار ذا بطن متدلية فبدأ يمارس بعض التمارين الرياضية الخاصة بالبطن، ثم أنه فتح الفيس بوك ففوجئ بإعلانات تدعوه لمشاهدة تمارين بطن للمبتدئين!

يقول صديقي – لن أذكر اسمه لأنني لم أطلب إذنه في النشر : «أنا عارف طبعا إن البرنامج بيراقب عمليات السيرش والمواقع اللي بتزورها علشان يعرف اهتماماتك ويجيب إعلانات متوافقة معاها، وبيراقب كمان تحركاتك الجغرافية عن طريق الجي بي إس، وبيعرف برضه بتقابل مين لإنه بيراقب الناس التانية كمان وبيعرف مين من الناس متواجدين في نفس المكان في نفس الوقت، وكنت قريت إنه بيراقب المحادثات عن طريق الميكروفون وبيحللها علشان يشوف كلمات مفتاحية للإعلانات، لكن ولا حاجة من دول تنطبق على اللي حصل معايا! ما أقدرش أقول انه حلل أنماط الحركة لإنه ما كانش في جيبي ساعتها. كمان حتى لو بيفتح الكاميرا ويراقب، فهو كان محطوط ع البوفيه والكاميرا باصة ع السقف وأنا كنت ع السجادة! طيب إيه؟ الموضوع بقى مخيف جدا».

بالطبع لا أعتقد أن التلصص قد بلغ درجة قراءة الغيب أو التفتيش في الأفكار. الاحتمال الأقرب عندي هو أن الصديق رأى لا شعوريًا إعلانات عن تمارين البطن، فالتفت إلى بطنه الخاصة، أو لعلها صدفة واهية جدًا مما يحدث كثيرًا.

مؤخرًا كثر الكلام حول تسريبات جديدة من ويكيليكس يطلق عليها اسم رهيب هو (القبو ٧)، ويبدو أنها صادقة هذه المرة. أعتقد أننا سنرى قريبًا فيلمًا مثيرًا يحمل هذا الاسم. الكلام يقول إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية – بالتعان مع المخابرات البريطانية - تتجسس على الهواتف والتلفزيونات الذكية. سارعت شركة آبل بالرد نافية إمكانية ذلك، ومؤكدة أنها تقوم بسد الثغرات طيلة الوقت، بينما فضلت سامسونج التمهل. قالت معلومات ويكيليكس إن وحدة متخصصة في التجسس الإلكتروني داخل الوكالة تمكنت من تطوير برنامج لاختراق هاتف سامسونج الذكي بحيث يظهر وكأنه مغلق عند إطفائه، ولكنه في الحقيقة يواصل العمل، ويرسل بيانات بالمحادثات الدائرة حوله إلى الجواسيس الأمريكيين. قالت التسريبات إن البرنامج له اسم شاعري هو (الملاك الباكي).

الأسوأ هو أن تلفزيونك الذكي من طراز سامسونج هو الذي يشاهدك ولا تشاهده أنت. إنه يسجل المحادثات التي تدور بقربه باستمرار، ثم يرسلها لوكالة المخابرات

المركزية عبر الواي فاي عندما تفتح الشاشة ثانية. يجب أن تكوني حذرة عندما تبدلين ثيابك أمام التلفزيون يا سيدتي، فلربما تصيرين موضوع فيلم السهرة لدى الأخوة في وكالة المخابرات المركزية، أو تنهال على صفحتك في فيس بوك الإعلانات التي تقترح دهانات لإزالة شعر البطن أو السليوليت في الفخذين، وتندهشين أنت من هذه الصدفة العجيبة.

كانت الحياة محتملة بشيء من العسر عندما كان الأمن يتلصص على مكالماتك الخاصة ليذيعها المذيع إياه في برنامجه، فأنت تدفع ضريبة كونك خلقت مصريًا ولم تولد في كوبنهاجن، لكن عندما تتدخل المخابرات المركزية والأخ زوكربيرج وشركات الإعلانات في القصة فإن الأمر يصير صعبًا جدًا. إن نادي تلفونيس يعود للحياة فعلاً، ومن جديد يثبت أحمد رجب أنه كان عبقريًا.

نبوءة لا تتحقق

انبهاري بعبقرية وإبداعات د. عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- أمر لا يقبل الشك، لكني منذ عشر سنوات أو أكثر كنت آخذ نبوءته الخاصة بقرب زوال إسرائيل على محمل الجد اليقيني. قال للمذيع أحمد منصور في أحد لقاءات قناة الجزيرة إنه يعتقد أن فترة ٢٠ عامًا طويلة جدًا كي تصمدها إسرائيل، قبل أن يتذكر آخر المغادرين أن يطفئ النور قبل ركوب الطائرة العائدة لأوروبا. وكانت لديه قائمة من الأسباب المهمة؛ لعل أولها عدم تجانس المجتمع الطبقي الإسرائيلي، وليس آخرها القنبلة الديموغرفية الفلسطينية التي ستجعل اليهود أقلية في بلد عربي فتكون النهاية مثل نهاية سياسة الأبارتهيد في جنوب أفريقيا.

كنت آخذ هذه المقولة كحقيقة لا تقبل الشك بسبب ثقتي في العالم العظيم، ولكني اليوم أتمنى لو كان د. عبد الوهاب بيننا ليشرح لي لماذا لم تتحقق هذه النبوءة أو يبدو في الأفق ما ينذر باقترابها. كل شيء يوحي بأن إسرائيل استقرت وسوّت معظم مشاكلها وباقية حتى إشعار آخر، والشرق الأوسط الجديد قادم حيث لا أحد يعادي إسرائيل، بل الكل يعتمد عليها ويهادنها. ومع الوقت يدرك المرء أن هناك دولة عظمى واحدة لا تتأثر بالجمهوريين ولا الديمقراطيين ولا انهيارات البورصة ولا سعر اليورو، هذه الدولة هي «إسرائيل». لقد تركناها تتضخم وتتوحش وتسيطر، كأنها السرطان الذي يظل قابلاً لاستئصاله وتحجيمه، غير أنه مع الوقت يسيطر

أكثر ويتغلغل أكثر وينشب مخالبه أكثر.

لي مقال قديم اسمه (الدور دائم الاخضرار)، حكيت فيه عن كتاب قديم مصفر الأوراق ممزق، وجدته في مكتبة صديق يهوى الشطرنج. كنت في سن المراهقة ولم أسمع قط عن وجود خطط للعبة الشطرنج، ولا هذه الرموز العجيبة على غرار (ب ٤ م – ح ٣ فو – بو X بم) ... (هو مش لعب وخلاص؟)، لكني ذُهلت عندما وجدت عددًا من الأدوار البارعة جدًا التي خلدها التاريخ، وكان لكل دور اسم. من بين هذه الأدوار دور عجيب أطلقوا عليه اسم (الدور دائم الاخضرار)، وقد لُعب في النمسا في يوم ما من القرن التاسع عشر. في هذا الدور يلعب الأبيض بسلبية غريبة، تاركًا قطعه ليتسلى عليها الأسود. الأسود يأكل الطابيتين.. الوزير.. الفيلين.. إلخ.. موقف الأبيض يسوء بلا انقطاع، بينما ملك الأسود يقف مزهوًا بين قطعه.. هنا ينقل الأبيض فرسًا.. فرسًا لا أكثر.. القطعة الوحيدة الباقية له.. كش مات.. ملك الأسود المحاط بحاشيته أدرك فجأة أنه في حصار لا فكاك منه، وأن حفاظه على قطعه جعله عاجزًا عن الحركة. لا تدرك مدى خطورة المأزق إلا عندما تبتعد عن الرقعة، وعندها تسلم بالعبقرية الأستاذية للاعب الأبيض. قلت وقتها إنني تذكرت هذا الدور عندما رأيت نشرة الأخبار.. إسرائيل هي بالضبط القطع البيضاء في هذه المباراة.. إنها تحركنا كما تريد عالمة أن النقلة الأخيرة لها.

كتبت في نفس المقال: «عندما يتكلم هيكل عن الخطة (جاما)، تجد بين أوراقه مذكرة – منذ خمسينات القرن الماضي – كتبها إيزنهاور، يقترح فيها إزاحة ناصر ومصر المشاغبة عن قيادة العالم العربي، واتخاذ زعيم روحي هو الملك سعود ليتولى قيادة الأمة. تكلم عن الريادة كما تريد لكن من يقود العالم العربي اليوم؟.. ما الدولة التي يذكر اسمها دومًا في المقدمة قبل مصر؟.. متى صارت مصر مرهقة مكبلة غارقة في مشاكلها الاقتصادية والسياسية فلا وقت عندها ولا بال رائقًا للعب دور قيادي؟ هذه أشياء تمت بالتدريج ولا نفطن لها إلا عندما نبتعد عن الرقعة أكثر. عندها تدرك أن الأسود يخسر فعلاً، وأن الأبيض ينفذ كل ما أراد».

قلت في نهاية المقال: «لا أؤمن بنظرية المؤامرة وكل الكتب السخيفة عن الأحجار على رقعة الشطرنج التي يحركها الكرادلة والحاخامات المتآمرون في ضوء المشاعل السباعية، لكني أؤمن يقينًا أن هناك مؤسسات صنع قرار وخزانات تفكير وخبراء إستراتيجية يخططون ونحن لا نفهم.. أؤمن بأن هناك لاعب شطرنج عبقريًا يتوقع كل هذه النقلات، وهو ينتظر اللحظة المناسبة كي يحرك فرسه.. كش مات يا عرب.. انتهى الدور دائم الاخضرار!».

يمكنك اليوم أن تتبين معالم ضبابية تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم لدخول السعودية طرفًا في كامب ديفيد،

وقيادتها للأمة العربية بحيث تتحول مصر إلى تابع يملك العضلات فقط، وتتبين معالم شرق أوسط جديد يتم فيه استبدال قطر وإيران بإسرائيل، فقد تغير وجه العدو ولغته. تسمع عن نية لتعيين دحلان رئيسًا للحكومة في قطاع غزة، وتسمع من يؤكد في الفضائيات أن سيناء لا تتبع مصر أصلاً!! هذه أشياء كانت تُقال همسًا فيما مضى، لكنها اليوم تقال بصوت عالٍ نوعًا.

لقد تغير العالم لكن موقفي لا يتغير: أنا أكره إسرائيل ولو طبّع العالم العربي كله، فأنا لن أكون الأخير لأنني لن أفعل أبدًا. لو كانت إسرائيل دولة عادية بيننا وبينها خلاف لكانت في الأمر مساحة للاختلاف، لكن إسرائيل هزمتنا ومزقتنا وتقتل أطفالنا بلا توقف.. إذن لا مجال للتفاهم الآن. لو أن مثقفًا فرنسيًا أيام الحرب العالمية الثانية راح يطري تقدم الألمان وعظمتهم بينما ألمانيا تحتل وطنه، لقتلته المقاومة الفرنسية قتلاً. وما كان أحد في فرنسا ليقول إن هذا الرجل عبقري سبق عصره، وأنت تعرف أن سارتر نفسه – رمز الاستنارة – كان عضوًا في المقاومة، لكن المشكلة أن المعايير عندنا مزودجة وغامضة.

هناك معاهدة سلام مع إسرائيل لكن ليس لها مردود شعبي واضح.. حكومة فيشي أعلنت الولاء لألمانيا وتصالحت معها، لكن الشعب الفرنسي لم يعترف بهذا بينما الحرب لم تنتهِ. يقول البعض إن الشباب المصري

يهاجر لإسرائيل ويتزوج إسرائيليات، لكن لا أرى هذا دليلاً على الحب بل هو دليل على انعدام الرزق والحقد على المجتمع بسبب الفقر، وطبعًا عامل الجنس. كم نسبة هؤلاء الشباب بالنسبة لمئة مليون؟ أعلن أنك تحب إسرائيل أو الصق نجمة داوود على زجاج سيارتك ولتر إن كانت ستظل سليمة ساعتين.

قال رابين كلمة ذكية جدًا: السلام ليس معناه الحب، وعدم الحب ليس معناه الحرب. أرفض أن تتغير المفاهيم مع الوقت ليصير الجبان تقدميًا واقعيًا، وأول من يستسلم يغدو سابقًا لعصره، لماذا لا نسمي الأشياء بمسمياتها؟ لماذا يصير كل من يرفض حنجوريًا؟ وهل كان أمل دنقل صاحب (لا تصالح) حنجوريًا؟

لست مع حرب لسنا متأهبين لها عسكريًا ولاسياسيًا ولا علميًا ولا اقتصاديًا، ولكني أطالب بالحفاظ على جذوة اللهب تحت الرماد... لا تطفئوها.

مدينة الصلاة

لا يوجد حدث يستحق الكلام عنه هذا الأسبوع أكثر مما يحدث في القدس، وهي الجرح الدامي المزمن في الجسد العربي، لكني أعتبر أن أخطر الفترات وأكثرها حرجًا وتوترًا هي الفترة الحالية، ومن الغريب أن الآراء انقسمت وحدث جدل على الإنترنت لأول مرة بصدد مشروعية الكفاح الفلسطيني. سوف أطلب منك أن تسمح لي بإعادة تلخيص مقال قديم لي يتحدث عن القصة كلها، وأرجو فقط أن تتخيل أغنية فيروز (لأجلك يا مدينة الصلاة) في الخلفية أثناء القراءة.. يمكنك كذلك أن تتخيل أغنية عبد الوهاب الجميلة «أصبح عندي الآن بندقية» من كلمات نزار قباني والتي غنتها أم كلثوم كذلك. وقتها كان عمر القضية عشرين عامًا فقط، عشرين عامًا يبحث فيها عن أرض وعن هوية، صحيح أن ٦٩ عامًا تكسر وزن الأبيات لكنها الحقيقة القاسية!

تاريخ القدس والمسجد الأقصى تاريخ طويل يمثل أعنف درجة صراع بين دينين. محاولات لا تنتهي من إسرائيل لهدم الحرم ودخوله وتدنيسه.

يذكر محمد حسنين هيكل أن الإسرائيليين عندما دخلوا القدس في عام ١٩٦٧ هرع أحد الحاخامات إلى القائد الإسرائيلي يقول له: «هذا هو الوقت المناسب كي تضع تحت قبة الصخرة عدة أطنان من الديناميت وتزيلها نهائيًا». قال القائد الإسرائيلي إنه لا يتحمل عواقب هذا. قال الحاخام في جنون: ومن الذي يمكن

أن يعترض طريقنا اليوم؟.

قال القائد الإسرائيلي: هناك دول إسلامية صديقة مثل تركيا وإيران وباكستان (وقتها) وبالتأكيد يهمنا ألا نخسرها.

عندها انصرف الحاخام وهو يبعثر لعناته مؤكدًا أن القائد أضاع فرصته لصنع التاريخ، لكن العقلية الإسرائيلية لم تتخلّ عن هذا الحلم.

في ٢١ أغسطس/آب عام ١٩٦٩ حدث حريق مروع في المسجد الأقصى، في الجناح الشرقي للجامع القبلي الموجود في الجهة الجنوبية. الفاعل هو سائح من أصل أسترالي اسمه «دنيس مايكل روهان» زعمت التحقيقات الإسرائيلية أنه مخبول، ومصاب بمتلازمة القدس النفسية التي تجعل كثيرين يريدون تدمير المسجد الأقصى لبناء الهيكل، وقد تم ترحيله لأستراليا بعد التحقيقات، لكن غضبة العالم العربي كانت مخيفة فعلاً وقتها أيام كانت الغضبات حقيقية.

الهجمة أدت لحرق منبر صلاح الدين ومحراب زكريا ومسجد عمر... إلخ. حتى لو كان روهان مخبولاً، فلا شك أن إسرائيل عطلت عمليات الإطفاء عمدًا وقطعت المياه عن مكان الحرم. لعبة التواريخ الساخرة تظهر هنا بوضوح، فهذا اليوم هو يوم مذبحة الغوطة في سوريا عندما ضرب بشار شعبه بالغازات عام ٢٠١٣، وفي نفس اليوم تمت تبرئة مبارك!.

تتعدد حوادث الاقتحام بعد هذا لكن أبرزها اقتحام

شارون للمسجد في ٢٨ سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٠، ليُلوّث أقدس مقدسات المسلمين، ويقول في نفس الوقت إن اسرائيل يمكنها أن تعيش بسلام مع الفلسطينيين.

القدس لدى اليهود هي عاصمة مسيح الخلاص الآتي من نسل داوود. وفي كتاب (الأجاداة) القصصي الشفوي في التَلمود: «سيأتي اليهود إلى القدس وسيأخذونها، وستمتلئ حدودها بالثروة». وفي تفسير التوراة صوّرت الكابالا (أورشليم) وكأنها المكان الذي سيفيض بالخير من السماء، ومنها يوزع على بقية العالم.

هدم المسجد الأقصى جزء لا يتجزأ من العقيدة الصهيونية. لن يعود المسيح لمعركة (هرمجدون) في نهاية الزمن إلا بهدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل سليمان. وبالطبع نعرف أن لهذه العقيدة أتباعًا مخلصين من مسيحيي الولايات المتحدة البروتستانت المتعصبين وذوي الأعناق الحمراء ممن يسمونهم Jesus freaks. دعك من تاريخ طويل من الحفريات والأنفاق حتى صارت الأرض تحت المسجد أشبه ببيت نمل. على كل حال اتفقت معظم هذه المنظمات على هدم كل مساجد القدس مرة واحدة ساعة صلاة الجمعة على سبيل الإبادة كذلك.

عادل حمودة كتب مقالاً مهمًا عن هذا في التسعينيات، وكان ذلك بسبب ظهور البقرة الحمراء المقدسة ميلودي في الجليل، والتي قامت مجموعة حاخامات بزيارتها

في كفار حسيديم، وقد باركوها واعتبروها مقدسة وأن الحين قد حان، وهذا يتزامن مع نهاية الألفية الثالثة للقدس عند اليهود. المفترض أن هذه البقرة ستحرق، وقد أعدوا ثياب الكهنة والسكاكين وكل شيء، ثم يتطهرون برمادها قبل دخول الهيكل، فهم يؤمنون أنهم نجسون ولا شيء يطهرهم سوى رماد البقرة ضمن طقوس معقدة شبه وثنية، ثم يتم توزيع رماد البقرة في زجاجات على كل يهود العالم! لا أعرف كيف تكفي البقرة كل هذه الملايين.

لحسن حظنا اكتشف الحاخام (شمار ياشوف) صاحب الذمة والضمير أن هناك بقعًا سوداء في جلد البقرة، وقد أخرج عدسة مكبرة ولاطف البقرة وفحص ذيلها فوجد بعض الشعيرات البيضاء، أما عن الأهداب فقد لاحظ أنها تبدأ حمراء وتنتهي سوداء. هذا أفسد دقة العملية، وهم شعب معروف بالتقوى ولا يقبل أنصاف الحلول. هكذا تم تأجيل العملية إلى حين، وقيل إنهم يحاولون بالهندسة الوراثية الوصول إلى بقرة متجانسة في مزرعة بالمسيسبي.

إقامة كنيس الخراب هي اللمسة الأخيرة هنا، وهو مشروع تتبناه الحكومة الإسرائيلية ماليًا ومعنويًا. هذا أكبر كنيس يهودي يقام على بعد أمتار من المسجد الأقصى وحسب نبوءة حاخام يهودي من القرن الثامن عشر، تقضي بأن يقام كنيس الخراب يوم ١٦ مارس/آذار عام ٢٠١٠. لم تسمح الحكومة الإسرائيلية بإقامة الكنيس

فوق المسجد الأقصى، وإن سمحت بإقامته فوق مسجد آخر وفوق بيوت حارة فلسطينية قديمة، على أن يكون أعلى وأشمخ من قبة الصخرة.

في كل مرة تغضب الشعوب العربية وتعم المظاهرات، لكن من الواضح أن المواطن المصري الذي خنقته الأنظمة الدكتاتورية وصعوبة العيش لم يعد قادرًا على مجرد الاحتجاج، ولو خرجت مظاهرات فلسوف تقمعها عصا الأمن الغليظة بكل سهولة. لهذا عندما نرى ما يحدث في القدس ندرك حقيقة مروعة هي أن السدادة الوحيدة التي تعوق إسرائيل عن هدم الأقصى، وتشعرها أن الأمر ليس مزحة، هي فلسطينيو الداخل. لو انصرف هؤلاء فلسوف تهدم إسرائيل المسجد في نفس اليوم. هناك سدادة أخرى واهية هي العلمانيون الإسرائيليون الذين يؤمنون بأن الهيكل خرافة، ولعبة الجينات هي التي تتحكم في لون البقرة!.

يكفي أن ترى الآراء على فيسبوك لتدرك أن الفلسطينيين وحدهم تمامًا، بل هناك كثيرون يلومونهم على ترويع المستوطنين الأبرياء.

لو نفذ الإسرائيليون حلمهم ستكون هناك مليون عريضة على البريد الإلكتروني؛ إدانة شديدة اللهجة من الرئيس الأمريكي والاتحاد الأوروبي واليونسكو بسبب هدم معلم أثري مهم، سوف يكتب الشعراء قصائد ممتازة جدًا عن المسجد الأقصى الذي كان لنا، ولسوف يبكي الجميع وهم يتناولون العشاء أمام التلفزيون،

وتعلق ملصقات تقول: «أين أنت يا صلاح الدين؟»، ثم لا شيء.

سوف ينقشع الغبار وينصرف الناس لطوابير الخبز وأنابيب البوتاجاز، ومتابعة مباريات الكرة. هل يوجد عندك سيناريو آخر؟ هذا هو ما سيحدث بالضبط بلا زيادة ولا نقصان، لقد تعب المواطن العربي واستنزفته هموم الحياة، فلم يعد يبالي بشيء ما دام حيًا. الفلسطينيون وحيدون تمامًا هذه المرة.

لم تهزمنا إسرائيل بهذه الأساطير، ولكنها هزمتنا بالديمقراطية والعلم والتقدم. ومنذ عام ١٩٦٨ قال الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين إنه لا سبيل لهزيمة اسرائيل إلا بتضييق الفجوة الحضارية بيننا وبينها، وهو ما لم نفعله قط. وما زالت الأنظمة العربية تضرب شعوبها وتقتلها أعنف بكثير مما تفعله إسرائيل مع أعدائها.

في النهاية أتذكر أبيات الشاعر مظفر النواب الرائعة القاسية:

القدس عروس عروبتكم.. فلماذا أدخلتم كل زناة الليل لغرفتها ووقفتم تسترقون السمع لصرخات بكارتها.. وطلبتم منها أن تصمت صونًا للعرض؟.. أولاد القحــ (....)!... هل تصمت مغتصبة؟

شكزا ترامب

قدر القضية الفلسطينية والقدس هو أنه كلما قل الكلام عنهما وفترت الحماسة وبدأ الناس يتأقلمون على الوضع الراهن، حدث شيء يفجر الأمور ثانية. لهذا يجب أن نشكر ترامب بشدة.. لقد أوشك الناس على نسيان فلسطين وسط مشاكلهم اليومية، وتفرغ كل قطر عربي لمشاكل نظامه وحكامه واقتصاده وصحته وتعليمه إن وجدوا، وفجأة يهبط قرار ترامب كالصاعقة، فيفيق الجميع من جديد. الصفعات مفيدة أحيانًا، وسل عن هذا أي طبيب تخدير.

قبل هذا فجّر شارون انتفاضة عندما أصر على دخول المسجد الأقصى مدعيًا أنه يحمل رسالة سلام، وهكذا.. وفي كل مرة تعود جذوة الغضب المقدس تشتعل بعد ما كادت تموت. هناك أجيال لا تعرف حرفًا عن القضية الفلسطينية ولا تعرف عن إسرائيل سوى سائحات شرم الشيخ الحسناوات. هذه الأجيال تفتش اليوم عن القضية وتعرف أن لأبيها ثأرًا فادحًا لم يأخذه أحد.

القدس تضيع.. القدس تضيع.. صحيح أنها ضاعت منذ عام ١٩٦٧ ولربما منذ عام ١٩٤٨، لكنها ظلت الجوهرة المسروقة التي استلبت منا، أما اليوم فهو بدايات تحويلها إلى حق مشروع لسارقها. كما يقول هيكل عن اتفاقية أوسلو إن الطرف الضعيف الذي يؤخذ منه كل شيء يظل يملك الحق الشرعي. ولهذا يظل قويًا قادرًا، فإذا تنازل عن حقه فهي لحظة السرقة الحقيقية فعلاً. كان كل شيء في العالم العربي ينبئ باقتراب اللحظة

والارتماء في حضن اسرائيل أهم دولة في المنطقة، وكثر الكلام عن صفقة القرن وعن أن القدس وهم صدقناه.. إلخ.. كانت كلمات مدوخة منومة تستلبك إرادتك لا شعوريًا، وهنا يتحرك الأحمق ترامب ليضع الجميع أمام مسئولياتهم. يستخدم الصفع بدلاً من التنويم المغناطيسي.

بالطبع انطلقت وسائل الإعلام في سباق المزايدات والغضب المفتعل، مع أن المشاهد والقارئ يعرفان أن ما يحدث هو نتيجة طبيعية لإعلام أحمق فاسد. لكن الأوامر الصادرة للإعلام هي أن يغضب بقوة.. يغضب بعنف.. يرسم العلم الإسرائيلي ثم يمزقه وينقعه في الماء.. يشتم ترامب بشدة، وفي الغرف المغلقة يعرف الجميع أنهم يعرفون بقرار ترامب منذ زمن. إن هي إلا فترة غضب أو تظاهر بالغضب، ثم تنقشع السحب وتعود العلاقات مع الولايات المتحدة وإسرائيل لدفئها القديم، ونعود للاحتشاد ضد عدونا الأزلي المخيف: قطر. بعد سنين تكثر السفارات في القدس.. وإذا بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل شاء من شاء وأبى من أبى.

هذا عن ضياع القدس، فماذا عن هدم الأقصى؟ أنت تعرف أن السبب الوحيد الذي يوقف هذا السيناريو هو شعيرات بيضاء في ذيل بقرة الأضحية.

منذ أعوام تنبأ كاتب اسمه مجاهد شرارة بسيناريو تفجير المسجد الأقصى، وهو يدل على فهم ممتاز للشخصية العربية:

عبر رئيس الوزراء الإسرائيلي عن أسفه لعملية التفجير ووصفها بعملية سيئة وألمح أن من قام بهذه الفعلة بكل تأكيد مجنون وبالطبع ليس على المجنون حرج.

أدان الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون (وقتها) عملية التفجير في مؤتمر صحفي أقامه بالمقر العام للأمم المتحدة بنيويورك ووصف عملية التفجير بالعمل غير المسئول، وطالب الفلسطينيين بضبط النفس، أما عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية (وقتها) فقد أعرب عن أسفه لما آلت إليه الأحداث ووصولها للذروة بتفجير المسجد الأقصى وطالب بقمة عربية طارئة لمناقشة المستجدات والوصول لموقف عربي موحد أمام هذه الغطرسة الإسرائيلية...

عبر رئيس السلطة الفلسطينية أبو مازن عن سخطه...

أطلقت كتائب عز الدين القسام وكتائب الأقصى وحركة الجهاد الفلسطيني مئات القذائف باتجاه المستوطنات اليهودية...

سيناريو آخر رسمه موقع الجزيرة وقتها:

صَدر بيان الآن من أمين عام الأمم المتحدة، يدعو فيه الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي إلى ضبط النفس، والتفكير في الأضرار الهائلة التي ستعم المنطقة حال نشوب نزاع إقليمي.. يحث البيان الحكومة الإسرائيلية على النظر في الإجراءات غير المحسوبة التي نالت من المسجد الأقصى، وهو رمز وأثر تاريخي للإنسانية

بدياناتها. بحسب مراسلينا في مصر والمغرب والسودان، فإن آلاف المتظاهرين قد خرجوا الآن في تظاهرات كبيرة وغير منظمة، رغم تأخر الوقت والجو المُمطر، هناك أخبار عن صدامات بين طلاب جامعة القاهرة وقوات من الأمن المركزي سيئ السمعة، التي حاولت منعهم من احتلال جامعة القاهرة لإعلان غضبهم.. في ليبيا خرج أيضًا الآلاف رافعين الأعلام الفلسطينية، وأحرقوا العلمين الأمريكي والإسرائيلي، بينما تحدث معمر القذافي (وقتها) عارضاً بناء مسجد أقصى آخر في ليبيا، مع إعادة هيكلة عملية السلام في الأراضي المحتلة.

ثم لا شيء.. سوف ينقشع الغبار وينصرف الناس لطوابير الخبز وأنابيب البوتاجاز، ومتابعة مباريات كأس العالم.

لا جدوى من جلد الذات، فليس كل الخطأ خطأنا وليس الذنب ذنبنا طيلة الوقت؛ فنحن عاجزون كشعوب عن الفعل ولا نملك سوى الإرادة. فقط لنتذكر أن الشعب العربي الوحيد الحر الذي لم تحتله إسرائيل قط هو شعب فلسطين. لا أتوقع أن تحل المشكلة في هذا الجيل.. علينا فقط ألا نتركها تذبل.. فلنبق جذوة النار مشتعلة تحت الرماد للأبد، كما كانت كاهنات دلفي مسئولات عن بقاء النار مشتعلة في المعبد وإلا أحرقن بنار جديدة. لنرب أولادنا جيدًا ونخبرهم عن فلسطين أرض الليمون والبرتقال والسلام، ونخبرهم عن عبق

القدس وعن مذبحة دير ياسين وكفر قاسم وبحر البقر.. ولنعلمهم أن الطريقة الوحيدة لهزيمة إسرائيل هي الحضارة والعلم والديمقراطية.

شكرًا يا ترامب، فقد كنا سنتكلم عن أشياء أخرى. لكنك أعدتنا للموضوع الأصلي.

اعتدت أن القوائم من طراز (أهم عشر روايات) و(ثلاثون رواية يجب أن تقرأها قبل أن تموت)..إلخ تحظى بالسخط دومًا؛ لأن هناك روايات مقدسة لدى كل شخص، ولسوف يجن جنونه عندما تغفل ذكرها، فيأتيك بريد غاضب يقول: «يا لك من أحمق، نسيت رواية (بلهاء في الأوقيانوسية) أو نسيت (أنياب زوج خالتي) وهي من التراث السلفادوري بالغ الأهمية». هناك كذلك الخلط بين (ما الروايات التي أثرت في حياتك؟) و(أي روايات يجب على الشاب المهتم بالأدب قراءتها؟) و(ماذا قرأت من روايات جيدة مؤخرًا؟) و(ماذا تقرأ هذه الأيام؟)، وهو فارق هائل في كل حالة. وفي النهاية تكتب القائمة فتشعر بأنها لا تضم ربع الكتب التي أردت الكلام عنها، وأنك نسيت كذا وكذا. لذا حاولت أن أتهرب من كتابة شيء كهذا، ثم تكرر الطلب من الشباب في عدة مرات، فقررت أن أسمي بعض الروايات التي تهمني أنا على الأقل، أو أثرت في مسار تفكيري بشكل واضح، ربما غيرته كذلك؛ أي أننا سنجيب عن سؤال (ما الروايات التي أثرت في حياتك؟) وهو لن يجيب بالضرورة عن سؤال (أي روايات يجب على الشاب المهتم بالأدب قراءتها؟)

لابد من وضع النقاط على الحروف، هذا العمل العملاق قد ترك بصماته في تفكير عدة أجيال، ومن لم يقرأ الروايات نفسها شمَّ رائحة باهتة من عبير القصة في أفلام «حسن الإمام» التي أبقت الهيكل العام برغم كل

شيء، فصار رجل الشارع يعرف ياسين وأحمد عبد الجواد على الأقل. هذا عمل كثيف شديد التعقيد، يصعب فهم كيف سيطر نجيب محفوظ– الذي كان في سن الخامسة والأربعين عندما بدأ كتابة العمل– على كل هذه الخيوط، وفي الآن ذاته هو عمل ممتع يصعب أن تتركه لحظة. هذه تجربة ترينا كيف أن الأدب قد يجمع بين العمق والإمتاع والتعقيد بلا تحذلق، وكما قال د. علي الراعي: «نغمة واحدة تتكرر: الزمان، كم هو يتغير!، من المؤسف أنه يتغير!، ربما يجب أن يتغير الزمان. الشر في العالم كم هو قاسٍ، كم هو ضروري!».

لم تستطع أي رواية أجيال أن تؤثر فيّ بعد هذه. الحقيقة أن نجيب محفوظ لم يلقَ بعد التكريم الواجب لمكانته، وقد قرأت أعمال «كويلو» الشهيرة على الأقل فشعرت أنه أقل من محفوظ بمراحل، وما زلت أشعر أن (السيميائي) صورة باهتة من (رحلة ابن فطومة – ١٩٨٣)، كما أن (الشحاذ) سببت لي أزمة وجودية لا بأس بها، ولا يستطيع أحد أن يفلت من سحر (الطريق) و(اللص والكلاب).

الجريمة والعقاب:

عمل «دستويفسكي» الجبار، لعله أول أعمال الأدب الروسي التي وقعت في يدي، وقد شعرت بأنني دخلت عالم المرآة السحري مع جريمة القتل التي نفذها راسكولينكوف الشاب المثقف النابليوني، فشعرت بإثارة شبه بوليسية، والحقيقة أن هذا طراز خاص من الأساليب البوليسية هو (كيف فعلها؟) وليس (من فعلها؟)، ثم بدأت أتورط في عالم نفسية البطل. دستويفسكي الساحر ينجح أن يجعلك أنت البطل نفسه، فتجد نفسك مصابًا بنوبة صرع، أو راغبًا في الانتحار، أو تجد لنفسك كل المبررات لقتل العجوز. مع دستويفسكي يمكنك أن تنزلق للجنون مع البطل دون أن تعرف. هناك مشهد شبه سحاقي بين فتاتين في رواية نيتوشكا نزفانوفنا، فتفاجأ بأنك تشعر بمشاعر الفتاة عاشقة صديقتها، ويرتجف قلبك انفعالاً وأنت تشعر بلذة بلوغ الأرب أخيرًا! من قال إن دستويفسكي ليس جبارًا؟، كانت الجريمة والعقاب هي حفرة الأرنب السحرية التي قادتني لعالم الأدب الروسي، وبعدها وجدت نفسي– في سن صغيرة جدًا هي المدرسة الإعدادية – وسط بوشكين وتورجنيف وتشيكوف وجوجول وشولوخوف وجوركي وتولستوي، كان التأثير كاسحًا وترك علامة لا تُمحى لدي. لربما قادنا هذا إلى روايات مهمة أخرى مثل: الأبله – الإخوة كارامازوف – تراس بولبا – مياه الربيع – آسيا – المعطف – د.

جيفاجو، لكن لنكتفِ بالرواية التي بدأت الروايات.

التفاحة والجمجمة:

في البدء كنت أعشق مقالات «محمد عفيفي» الساخرة التي تُنشر بشكل أسبوعي في مجلة المصور، وتحمل عنوان (ابتسم من فضلك)، ويمكنني بالفعل أن أعيد تسميعها عليك، ثم قرأت معظم كتبه التي تضم مقالاته، قرأتها في المدرسة الابتدائية؛ لذا عندما عرفت أن للرجل رواية طويلة كانت تنشر مسلسلة في مجلة– لعلها الكواكب أو هو وهي- سارعت باقتنائها، وكان ما أدهشني كونها عملاً عميقًا مليئًا بالرمزية والتساؤلات عن الحياة ووجودنا. التفاحة والجمجمة هي ثنائية «الحب والجنس» والموت، وفي الوقت ذاته أنت لا تكف عن الضحك لحظة واحدة. قمت بتسجيل كل حلقات المسلسل الإذاعي الرائع الذي يحمل نفس الاسم، ولم أحب الفيلم الذي قدم عنها. لسبب ما تنجح دائمًا كل القصص التي تدور فوق جزيرة منعزلة وحيث تدخل العواطف والعلاقات مرحلة التجريد. قرأت رواية (حكاية بنت اسمها مرمر) لنفس الكاتب، لكن الفارق هائل بين الروايتين.

ابنة الحظ / صورة قديمة:

من أفضل ما قرأت في سن متقدمة، حيث أنني حسبت أنني قرأت في أول ثلاثين عامًا من عمري كل ما

هو جيد أو شائق، ثم أعارني أحد الأصدقاء هذين الكتيبين المتكاملين للكاتبة التشيلية الكبيرة «إيزابيل الليندي»– يبدو أن نطقها الصحيح أيندي- والتي قتل عمها رئيس الدولة الليندي في انقلاب بينوشيه الشهير. غبت في عالم الرواية بضعة أيام، وتذكرت النشوة القديمة عندما كنت مجرد قارئ، ولم أكن كاتبًا بعد. هكذا كانت الرواية تلمس كل عصب في جسدي وترافقني عدة أيام. بعد ما احترفت الكتابة نسبيًا أدركت مشكلة الطهاة الشهيرة، عندما يعجزون عن الاستمتاع بوجبة شهية لأنهم يفكرون في مكوناتها وعيوبها. قبل هذا كان بطل القصة يرتكب خطأ غير منطقي فأشتمه لأنه أحمق، اليوم أشتم المؤلف لأنه هو الأحمق! أعادتني الثنائية الرائعة لعالم القراءة الوردي، وأحببت كل سطر فيها. لدي حساسية خاصة تجاه الأدب النسائي الذي يحاصر نفسه في عوالم القبيلة وكراهية الرجل والمجتمع الذكوري، لكن إيزابيل تكلمت كإنسان أولاً فبرعت وتميزت.

1984:

قرأت عن هذه الرواية في كتيب من سلسلة اقرأ يعرض أشهر الأعمال الأدبية، وظل الاسم ملتصقًا بذهني، وقرأت العمل الرائع لنفس المؤلف (مزرعة الحيوان) أولاً، قبل أن تصل لغتي الإنجليزية لدرجة تسمح لي بقراءة هذا العمل المذهل. «جورج أورويل»

كان عبقريًا بحق ولا أعرف ما كان يمكن أن يقدمه لو لم يرحل في سن مبكرة. كلما تكلم الناس عن الخيال العلمي وثبت ١٩٨٤ للسطح، يتكلمون عن السياسة فتطفو الرواية للسطح، خليط مذهل من الخيال العلمي والمغامرة والسياسة، وفيها روائح من عوالم أخرى مثل (عالم جديد شجاع) لهكسلي و(٤٥١ فهرنهايت). فيما بعد اقترحت صديقة سكندرية أن أترجم هذه الرواية فتذكرت أنني كنت أحلم بنسخة عربية منها فيما سبق، هكذا قمت بترجمتها، وأعطاني هذا الفرصة كي أقترب جدًا من النص المذهل. العالم الأورويلي صار مصطلحًا راسخًا كما صار العالم الكافكاوي. في محاكاة واضحة للرواية، صنع «تيري جيليام» فيلم (برازيل -١٩٨٥) وقدم «موراكامي» ١Q٨٤.

ميزري:

هذا الكتاب يحتل موضعًا مهمًا في روحي لأنه أول ما قرأت «لستيفن كنج»، وكنت أعمل وقتها في المملكة العربية السعودية. اشتريت هذه الرواية الإنجليزية وقرأتها في شغف، فقد جعلتني غائبًا عن العالم لعدة أيام. كنت أنتظر لحظة العودة للبيت لأمارس لذتي الوحيدة: استكمال القصة، وقهرت شعوري بالوحدة والغربة. قلت لنفسي إن هذا كاتب بارع يملك حيوية غير عادية. كانت الكتب غالية، فاعتدت أن أقصد سوبرماركت ميد المجاور للبيت، فأبتاع شطيرة وكوب

عصير- ليُسمح لي بالجلوس - ثم آخذ رواية من على الرف، وأجلس في هواء التكييف، وأطالع جزءًا كل يوم، ولم يكن أحد يمنعني أو يعترض. هكذا قرأت في سوبرماركت ميد (كريستين) و(هو) و(تألق) و(كاري)... إلخ. عندما عدت لمصر رأيت مساري محفوزًا على الرمال؛ أدب الرعب، وأقسمت أن أترجم رواية (ميزري) بمجرد أن أجد دارًا تسمح لي بذلك، وقد فعلت- مع تلخيص كثير - فكان أن أعجب الأستاذ «حمدي مصطفى» بها وعهد لي بسلسلة روايات عالمية للجيب، التي كان د. نبيل فاروق قد بدأ يسأمها. وأعتقد أنني أول من ترجم ستيفن كنج للعربية، كان اسم الرواية (الشيطانة).

أواصل هنا قائمة الروايات التي أحدثت أثرًا عظيمًا في حياتي، وهي قائمة مليئة بالسهو طبعًا. يجب ذكر أنني لم أتكلم عن القصص القصيرة قط، ولهذا لم أذكر حشدًا من أعمال تشيكوف ويوسف إدريس وموباسان التي أحدثت أثرًا بالغًا لدي.

ثم لم يبق أحد:

لعل هذا كان لقائي الأول مع «أجاثا كريستي»، وذلك في رواية عجيبة لا يظهر فيها أي من أبطال كريستي الدائمين مثل بوارو ومس ماربل وباركر باين. الرواية كانت تحمل اسم (جزيرة الموت) في ترجمة دار الهلال، وقد حرمتني النوم لأيام طويلة.. بسبب الرعب طبعًا. للرواية أسماء أخرى مثل (عشرة من الصبية الهنود). كانت هذه أول مرة أعهد فيها أسلوب أجاثا كريستي الساحر في استعمال أغاني الأطفال، على غرار (ثلاثة فئران عمياء).. إلخ.. هنا أغنية أطفال كابوسية غامضة تحكي عن عشرة صبية هنود يموتون ويتناقص عددهم بلا توقف:

عشرة صبية هنود ذهبوا لتناول العشاء

اختنق أحدهم فبقي منهم تسعة

تسعة هنود صغار سهروا إلى وقت متأخر جدًا

أفرط أحدهم في النوم فبقي منهم ثمانية

ثمانية هنود صغار سافروا إلى ديفون

قرر أحدهم البقاء فبقي سبعة ... إلخ

الفكرة أن هناك عشرة غرباء في جزيرة معزولة يموتون بذات طريقة الأغنية حتى انتهوا تمامًا. التوتر كان كاملًا والتفسير كان شديد الإتقان والبراعة. ليس الرعب قدح شاي أجاثا كريستي المفضل كما يقولون، لكن هذه الرواية قادرة في لحظات معينة على جعلك تثب مترًا في الهواء لو تحرك شيء في المطبخ. لقد دخلت أجاثا كريستي حياتي لتبقى، ومعها حب الرعب، وتقنية استعمال أغاني الأطفال في القصة.

حذار من الشفقة:

في فترة من حياتي –لعلها أعوام الكلية- قابلت اكتشافًا مذهلًا هو الكاتب النمساوي الرائع «ستيفن تسفايج». قرأت له أعمالًا رائعة مثل ماجلان ولاعب الشطرنج وليبوريلا ... إلخ، لكن هذه الرواية بالذات تملك القدرة على امتصاصك بداخلها، وهي مليئة بأسئلة مشروعة عن نفسك والآخرين. كتبها عام ١٩٣٩م وقدمت في حشد من الأعمال الدرامية. الملازم الوسيم الشاب يقابل الابنة المشلولة لأحد الأثرياء فيقع في حبها، وهو ليس حبًا بالضبط بل هو يحوي قدرًا هائلًا من الشفقة، ثم يكتشف بعد هذا أنه تورط جدًا وأنه لن يقدر على الزواج منها. رأيت هذا الموقف مرارًا في حياتي، عندما يتطوع أحد الطرفين بأن يضحي، مدفوعًا برومانسية الاستشهاد، حاسبًا أنه أقوى أو أنبل

مما هو في الحقيقة، ثم تأتي لحظة التراجع والفرار بكل ما فيها من ذبح كامل للطرف الآخر. أديب عبقري بحق، ومن المؤسف أنه انتحر مع زوجته عام ١٩٤٢م لأنه شعر بأن النازية سوف تبتلع العالم كله ولا مفر منها.

العيب:

«يوسف إدريس» كاتب قصة قصيرة مبهر أولًا وثانيًا وثالثًا، لكن يمكن القول إنه قدم عملين روائيين مهمين فعلًا، هما العيب والحرام. مستوى الروايتين متقارب ويعكس براعة الرجل الشديدة في الأسلوب والتقاط التفاصيل، لكن رواية العيب وقعت في يدي أولًا. عشت لحظات قاسية مع الموظفة النقية التي تمت تربيتها جيدًا، عندما يتم غرسها في مستنقع حكومي حيث الرشوة هي الخبز اليومي، وحيث انعدام الضمير هو السر المشترك الحميم للمصلحة التي تتعامل مع الفساد كأسرة واحدة. وبالطبع هناك قسط من الاشتهاء الجنسي لها. تقاوم بشراسة لكنها تنهزم في النهاية، وقد تعلمت من هنا مدى عدم الراحة والتوتر اللذين ينبعان من تجنب النهايات السعيدة.. في الواقع ينتصر الشر على الأرجح لأنه أقوى وأكثر انتشارًا وأشد ذكاءً، والجديد هو أن يقلد الأدب قسوة الواقع. هذه النهاية القاسية لا تعطيك التطهر الأرسطوطالي المعروف الذي تمنحك إياه النهايات السعيدة. لكنك في النهاية تدرك أن التشبث بقيمك جهاد حقيقي شديد العسر، ولهذا تظل

الأحجار الكريمة غالية لأنها نادرة.

ثلاثية غرناطة:

لا يمكن الكلام عن هذا العمل المذهل بكلمات مختصرة. أعتقد أن الجيل الحالي كله قد قرأها وانبهر بها. «رضوى عاشور» تنقلك بآلة زمن إلى الأندلس لحظة سقوطها. غرناطة.. مريمة.. الرحيل.. وتسيطر على كل الخيوط المعقدة ببراعة مذهلة. أعتقد أن هناك جيلًا كاملًا من الروايات ذات الأصل التاريخي خرج من عباءة هذا العمل. الطبعة التي قرأتها كانت طبعة دار الهلال عام ١٩٩٥م. منذ عام ونيف زرت هارفارد وقابلت جرانارا الأستاذ الأمريكي الذي ترجم هذا العمل العظيم للإنجليزية. رضوى عاشور نموذج آخر على قوة وشموخ الأدب الإنساني الذي تكتبه المرأة، وهو يختلف بالتأكيد عن مصطلح الأدب النسائي.

مدام بوفاري:

رائعة «جوستاف فلوبير». قرأتها في سن مبكرة جدًا ضمن سلسلة كتابي التي قدمها الرائع حلمي مراد، والتي حاولت المؤسسة العربية الحديثة إعادة إحيائها. كان هذا هو شهر رمضان وأنا في المدرسة الإعدادية، وأنا أقرأ هذه القصة في الفراش بعد السحور وصلاة الفجر، فتأخذني السطور لأكتشف أنها العاشرة صباحًا وأنه يجب أن أنام! كنت منبهرًا بقدرة الكاتب على

تشريح شخصية مدام بوفاري ونوازعها النفسية مع زوجها الطبيب الريفي الممل. الارتباط بشخصية رومانسية حالمة كهذه هو الجحيم بعينه لأنك لن ترضيها أبدًا، دائمًا هو الإحباط والاكتئاب. هذا درس مهم في الحياة، لكن ما يهمنا هنا هو درس الكتابة الأدبية كذلك. جربت عدة مرات في مراهقتي أن أكتب مثل فلوبير وفشلت.

القمر وستة بنسات:

يتعامل دارسو الأدب بتحفظ مع «سومرست موم» باعتباره يرتكب أخطاء كثيرة في السرد، وباعتباره مسليًا أكثر مما يليق بكاتب محترم! بالنسبة لي كان العثور على عمل لم أقرأه لسومرست موم عيدًا ثقافيًا صغيرًا. حتى أنني أحفظ معظم كتابه عن فن الرواية، وملاحظاته عن الحياة. القمر وستة بنسات هي قصة عن جنون الفن الذي يستبد بمحاسب يحيا حياة آمنة بلا إثارة، فيصر على التخلي عن كل شيء كي يرسم، ويترك زوجته ويذهب إلى تاهيتي ليعيش هناك يرسم الطبيعة ويعاشر حسناوات الجزر، حتى نهايته الفظيعة بداء الجذام. القصة تتحدث عن حياة جوجان طبعًا، وهي مليئة بحبكات فرعية مبهرة مثل الرسام طيب القلب الذي يستولي جوجان على زوجته، زوجته الباردة التي يبدو أنها تكره جوجان وتحتقره لكنها في الواقع تقع تحت سيطرته تمامًا. هذا عمل فائق الإمتاع وشبه ملحمي، فلا شك أنه ترك أثرًا يصعب محوه في عقلي وكتاباتي.

المسيح يُصلب من جديد:

كان هذا أول عهدي بالرواية (الكومودينو) التي تعجز عن حملها، وهو شعور تجدد مؤخرًا مع ١٩٨٤ لموراكامي. لكنه كذلك أول عهدي بالرواية الكومودينو التي تتمنى ألا تنتهي أبدًا، كما أنه علمني أن ألاحق اسم الأديب اليوناني «نيكوس كازندزاكيس» أينما كان. كنت أخلط بينها وبين رواية (الإغواء الأخير للمسيح) لنفس المؤلف، لكني لم أقرأ الأخيرة وإن رأيت فيلم سكورسيس عنها. هنا ينقلك المؤلف لتعيش داخل قرية يونانية يحكمها الأتراك بقبضة غليظة ووحشية بالغة، وهناك فرقة مسرحية تريد تقديم مسرحية عن حياة المسيح. كالعادة هناك أرملة حسناء تتصارع عليها القرية، وهناك أغا تركي لديه غلام وسيم يهيم به حبًا، وهناك ممثل الفرقة الذي يشعر مع الوقت أنه يتحول للمسيح فعلًا، وهناك لاجئون جاءوا القرية. كل هذا يتحول لصراع سياسي وصراع بين المتدينين حقًا وبين من يبيعون الدين. عمل كثيف لا يمكن وصفه وعشرات الشخصيات الثرية والصراعات.. أعتقد أنك ستطالعه عدة مرات إن لم تكن قد فعلت.

سلسلة أولادنا:

هنا لا أتكلم عن رواية بعينها، بل عن تلك السلسلة الساحرة التي صدرت عن دار المعارف، والتي اجتمع عليها «محمد فريد أبو حديد» والدينامو العظيم «عادل الغضبان» ولوحات الفنان ديك، لتصدر هذه الكتيبات المميزة التي قدمت روائع الأدب العالمي لجيل كامل، وكان هذا لقائي الأول مع مون فليت، جزيرة الكنز، كنوز الملك سليمان، الربان بلاد، أوليفر تويست، ديفيد كوبرفيلد، آلة الزمان. وكانت هناك أعمال عربية مهمة مثل عمرون شاه وكريم الدين البغدادي. أسلوب شائق محكم وأمانة في العرض. أبدًا لا أستطيع أن أصف لك العالم السحري الذي كان الكتيب يحملني له برائحته وورقه الخشن وإخراجه المميز. قمت بتجليد مجموعتي كاملة وما زلت أرجع لها من وقت لآخر لأستعيد ذلك الشعور الطازج. هؤلاء القوم صنعوا لنا النار التي نصطلي بها في فترات البرد القارس من حياتنا.

يبدو أنني أطلت جدًا.. ما زال الكلام كثيرًا، لكن لا بد من التوقف عند نقطة ما.. على الأقل قد ذكرت الروايات الأهم التي تثب إلى ذهني كلما سئلت عن أهم روايات أثرت في. ثمة روايات مهمة في الصف الثاني لكن لنتركها لاكتشافاتك الخاصة.